مجلة
كلية الآداب

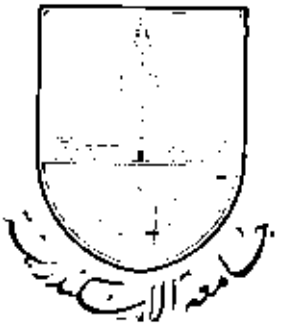

المجلد الثامن عشر

١٩٦٤

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بالشاطبي ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالمراسلات العلمية إلى

هيئة تحرير المجلة

مطبعة جامعة الأسكندرية

١٩٦٥

فهرس

صفحة

المتنبي والقرامطة

للأستاذ الدكتور محمد محمد حسين ١

من محفوظات دير سانت كاترين

للدكتور حسن صبحي ٤٩

تعليقات على بعض الاشارات الفارسية في الأشعار العربية

للدكتور طه ندا ٩٣

دير سانت كاترين — دراسة في تاريخه الحديث

للدكتور محمد محمود الروحي ١١٧

الاكتساح والنحت بواسطة الرياح

للدكتور جوده حسنين جوده ١٥٧

دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي

للدكتور جوزيف نسيم يوسف ١٧٩

أندريا ترانتيوس

للدكتورة فاطمة سالم سيف ٢٠٩

المتنبي والقرامطـــة

للأستاذ الدكتور محمد محمد حسين

الحمد لله . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله .

وبعد ، فقد شغل المتنبي الناس في حياته وشغل النقاد بعد موته . وبالرغم من مرور ألف عام على اشتغالهم بحياته وبشعره ، لا يزال فيهما بعض الظواهر الغامضة التي تحتاج إلى تفسير ، أو التي لا يزال مجال الدراسة مفتوحاً لمزيد من الفروض التي تفسرها . ومن أبرز تلك الظواهر ظاهرة تأخذ نظر المتصفح لشعر المتنبي منذ النظرة الأولى ، وهي الثورة العارمة التي تغشى شعره كله ، لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات ديوانه . وقد كان الناس يطمئنون إلى أن هذه الثورة مظهر لمرض نفسي يشبه الجنون ، جعل المتنبي في نقمة دائمة على الناس ، ملوكهم وعامتهم . وهي نقمة لا يبررها عندهم إلا هذا الجنون . ولكني أريد أن أفترض أن هذا الذي اطمأن إليه الناس في تعليل تلك الظاهرة غير مسلَّم . وأريد أن أحاول البحث من جديد عن تعليل لهذه الظاهرة . وأريد أن ألتمس ذلك التعليل في صلة المتنبي بالقرامطة . وقبل أن أبدأ كلامي في الموضوع لا أرى بداً من التعريف بالقرامطة . فمن هم القرامطة ؟

القرامطة شعبة من شعب الباطنية أو الشيعة الاسماعيلية ، الذين برزوا على مسرح التاريخ الاسلامي في أواخر القرن الثالث الهجري ، والذين كانوا يتظاهرون بالدعوة لآل البيت وإنصاف المظلومين من الظالمين والمحرومين من المترفين ، ويبطنون الالحاد وهدم الاسلام ؛ بل هدم العقائد الدينية كلها ، باستدراج الداخلين في دعوتهم في مراتب ودرجات سرية يسلخونهم فيها من عقائدهم ، حسب ما يرونه من استعداد التابع لهم ، حتى ينتهوا به إلى الكفر بكل الأديان والتحرر من كل التكاليف وإباحة كل المحرمات .

وكتب التاريخ على اختلافها مملوءة بأخبار القرامطة وحاربتهم للخلافة العباسية وغاراتهم المخرّبة على الأمصار والمدن ، وفظائعهم التى ارتكبوها مع قوافل الحجاج وفى الكعبة نفسها . ولكن نشأتهم وعقائدهم وحقيقة أهدافهم يحيطها كثير من الغموض — شأن كل الدعوات السرية — وأكثر مانعرفه عنهم فى هذه الناحية مستمد مما كتب عن الشيعة الاسماعيلية الذين يطلق عليهم اسم الباطنية — والقرامطة كما قلنا شعبة منهم — نجد ذلك فى كتب الفرق ، مثل (الفرق بين الفرق) للبغدادى (المتوفى سنة ٤٢٩) و (التبصير فى الدين) لتلميذه وختنه عماد الدين الاسفراييني (المتوفى سنة ٤٧١) و (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الأندلسى (المتوفى ٤٥٦) و (الملل والنحل) للشهرستانى (المتوفى سنة ٥٤٨) . وقد ازدادت معرفتنا بعقائد الباطنية فى السنوات العشرين الأخيرة ، بعد ظهور عدد من الكتب التى ألفها علماء هذه الطائفة ودعاتها . وإن كان من الواضح أن هذه الكتب لا تمثل الجانب السرى الخدام من المذهب . فهى مكتوبة للعامة ممن يراد استدراجهم وإدخالهم فى المذهب . ولا تزال أكثر كتب الدعاة مجهولة أو مستورة فى خزائن الشعب المتخلفة الباقية من هذه الطائفة فى الشام واليمن وشرق إفريقية وفى باكستان والهند ، ولا سيما طائفة البهرة (١).

وأقدم ما وصلنا فى الكلام عن مذاهبهم هو ما كتبه الحسن بن موسى النوبختى (من علماء الشيعة الامامية فى القرن الثالث الهجرى) فى كتابه « فرق الشيعة » . ومن أقدم ما وصلنا عن أخبار القرامطة (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) لمحمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى . ويعد هذا الكتاب أخطر ما كتب عن القرامطة والباطنية عامة ، لأنه ينفرد بين سائر ما كتب عنهم بأن مؤلفه قد دخل فى مذهبهم واندمج فى صفوفهم ، ثم انسلخ منهم حين عاين كفرهم وضلالهم ، وكتب كتابه تنبيها للمسلمين إلى خطرهم (٢) .

---

(١) طائفة الاسماعيلية ص ٤٥ — ٥٧ ، ١٧٨

(٢) كشف أسرار الباطنية ص ١١ ، ٤٢ — ٤٤

ودعاوى الشيعة عموماً — ومنهم الاسماعيلية والقرامطة — تبدأ من يوم الغدير — غديرخم — الذى يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم عهد فيه إلى على عند عودته من حجة الوداع سنة ١٠ هـ . وذهب غلاتهم إلى أن النبوة قد سلبت من النبى منذ ذلك الوقت وأصبحت لعلى رضى الله عنه (١) .

والشيعة كلهم — على اختلاف فرقهم - يقولون إن الامامة تورث ولا تكتسب ، وانها قد تسلسلت فى عقب على ، كلما مات إمام نص على من يخلفه بوحى من عند الله لا محل فيه لاجتهاد البشر .

وفساد دعاواهم يبدأ من ابن سبأ اليهودى الأصل ، الذى يعتبر اليد المحركة من وراء الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان رضى الله عنه ، والذى يعتبر كذلك اليد المحركة لفتنة على ومعاوية حين اندس هو وصحبه فى صفوف جيش على . فقد زعم أن روح الله حلت فى على ، وأقحم على التشيع عناصر غريبة عن الاسلام حين زعم أنه حى لم يمت وأنه يعود فى آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا (٢) ثم كان ظهور الاسماعيلية الباطنية على يد يهودى آخر هو عبد الله بن ميمون القداح أخطر تطور خرج بالدعوة من النور إلى الظلام ، ودخل بها فى سراديب الخفاء(٣).

وتبدأ دعوى الاسماعيلية استحقاق الامامة بوفاة الامام جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن على بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب سنة ١٤٧ . فقد انقسم الشيعة من بعده إلى فريقين :

(١) الامامية : الذين سلسلوا الامامة من بعده فى ابنه موسى الكاظم وفى أبنائه من بعده ، إلى الامام الثانى عشر محمد بن

---

(١) فرق الشيعة ص ٧٢

(٢) مختصر الفرق بين الفرق ١٤٢ — ١٤٤ .

(٣) الحاكم بأمر الله ص ٥١ — كشف أسرار الباطنية ص ١٧ — ابن الأثير ٦ : ١٢٥ من حوادث سنة ٢٩٤ . وقد اختلفت الآراء فى دينه . فمن قائل إنه مجوسى . ومن قائل إنه يهودى ومن قائل إنه نصرانى ديصانى . وأية ما كان الأمر فجمهور المؤرخين متفقون على أنه كان يكره الاسلام والعرب ، ويعمل على هدم دينهم ودولتهم . راجع بالحاكم بأمر الله ص ٤٨—٥٣).

الحسن العسكرى ، الذى دخل السرداب بزعمهم فى مدينة سامرا (شمال بغداد) سنة ٢٦٠ . ويظل فيه إلى أن يعود فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا .

(ب) والاسماعيلية : الذين قالوا بامامة إسماعيل بن جعفر الصادق وإمامه أبنائه من بعده . وهم يزعمون أن جعفر عهد بالامامة إلى ابنه اسماعيل الذى توفى فى حياة أبيه . وفى زعمهم أن الامامة تنتقل إلى ابنه محمد بن إسماعيل لا إلى أخيه موسى . وفيهم من يزعم أن إسماعيل لم يمت فى حياة أبيه ، ولكن أباه أذاع هذا الخبر تمويها على الخليفة العباسى . ومن الثابت تاريخاً أن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ترك المدينة إلى بلاد الديلم (جنوب بحر قزوين) . ولم يسمع عنه شىء بعد ذلك (١).

والواقع أن التاريخ لم يعرف شيئاً اسمه (فرقة الاسماعيلية) حتى أواخر القرن الثالث عندما ظهرت حركة القرامطة فى البحرين والشام . وذلك بعد دخول الامام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى السرداب — بزعم الامامية سنة ٢٧٠ (٢) . وكان ظهور القرامطة إيذاناً بظهور الاسماعيلية على مسرح السياسة ، بعد انقطاع أخبار ولد إسماعيل بن جعفر قرناً كاملا ، يزعم الاسماعيلية أن أئمتهم كانوا فيه مستترين خوفا من بطش العباسيين . وهذه الفترة هى المعروفة عند مؤرخيهم بدور الستر (وهو يبدأ بوفاة جعفر الصادق سنة ١٤٧ وينتهى بظهور عبيد الله المهدى بالمغرب سنة ٢٩٦) ولم يستطع

---

(١) طائفة الاسماعيلية ص ١٤ .

(٢) راجع فى ابن الأثير ج ٦ : ظهور أبى سعيد الجنابى فى البحرين سنة ٢٨٦ ، وظهور ذكرويه بن مهرويه فى الشام سنة ٢٨٩ . ومن المؤرخين من يرجع نشأة الدعوة الباطنية إلى أيام المأمون ويجعل ثورة بابك (الخرمى) من ثورات الباطنية والقرامطة . وقد كان الافشين أقائد العباسى المشهور يخفى ولاءه لهم ، ثم قتله المعتصم حين اكتشف حقيقته — التبصير فى الدين ص ٨٤ ، مختصر الفرق بين الفرق ص ١٨٣ .

الاسماعيلية أن يقدموا لنا صورة صحيحة متفقاً عليها بينهم عن أئمتهم فى هذه الفترة . فالخلاف بينهم كثير حول عددهم وأسمائهم (١) .

ونشأة فرقة الاسماعيلية (التى تنتمى إليها الدولة الفاطمية) موضع خلاف بين مؤرخى السنة والشيعة على السواء . والخلاف حول نشأة هذه الفرقة يتصل اتصالا وثيقاً بالخلاف حول نسب الفاطميين ، الذى ظل موضع جدل بين الباحثين القدماء والمحدثين منذ ظهروا حتى الآن . ففريق من العلماء والمؤرخين يؤيد نسبهم إلى الحسين رضى الله عنه — وهم قليل (٢) .

---

(١) طائفة الاسماعيلية ص ١٤ — ٢٢ .

(٢) صحح نسبهم ابن الأثير وابن خلدون والمقريزى . وابن الأثير — مع تصحيحه نسبهم — يروى أخباراً غاية فى البشاعة من أفعال القرامطة ، مع ما هو معروف من أنهم فرع من الدعوة الفاطمية . وابن الأثير لا يعتمد فى تصحيح نسب الفاطميين إلا على قوله « وسألت أنا جماعة من العلويين فى نسبه — يقصد صاحب مصر — فلم يرتابوا فى صحته » ولكنه لا يورد أسماء هؤلاء الذين سألهم . بينما يذكر أسماء الأشراف والعلماء الذين وقعوا المحضر العباسى القادح فى نسب الفاطميين . كما ينقل عن الأمير عبد العزيز صاحب تاريخ إفريقية والمغرب أن نسبهم معروف فى اليهودية . ولا يعتمد ابن الأثير — عدا ما ذكره من شهادة بعض العلويين الذين لم يذكر أسماءهم — إلا على شعر منسوب للشريف الرضى يقول فيه :

ما مقامى على الهوان وعندى ... مقول صارم وأنف حمى
أليس العذل فى بلاد الأعادى ... ونصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا خاسنى البعيد العصى

مع أن ابن الأثير نفسه قد ذكر بعد ذلك فى قصة هذا الأبيات أن الشريف الرضى أنكر نسبة الشعر إليه حين عاتبه أبوه فيه . ولكنه امتنع عن تكذيبه عند الخليفة خوفاً من بطش (الديلم والمصرى واللداهة فى البلاد) — ابن الأثير ٦ : ١٢٥ — ١٢٦ حوادث سنة ٢٩٦ . أما ابن خلدون فهو — مع إقراره بصحة نسبهم — يعتبر بكفرهم وإلحادهم ، ويقول إن صحة نسبهم لا تعنى شيئاً فى الله شيئاً فى تكفيرهم — الحاكم بأمر الله ص ٤ : نقلا عن مقدمة ابن خلدون — أما المقريزى فهو فى رأيه ناقل عن شيخه وأستاذه ابن خلدون ومتأثر به . ومع ذلك فهو الذى نقل فى خططه عن مراتب الدعوة الفاطمية التسع ما لا يشك معه فى أن دعوتهم تنتهى بسالكها فيها إلى الكفر ، بإسقاط كل التكاليف بعد تأولها ، وباعتقاد أن الفلاسفة أعلى طبقة من الأنبياء — الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٣٥ .

من حمص فى سورية — هى المركز الأول لقيادة هذه الحركة . وقد ظلت كذلك إلى أن انتقلت منها القيادة إلى شمال إفريقية ثم إلى مصر . وكانت أسرة ميمون القداح رأس هذه الحركة تعيش فى «سلمية» فى هيئة تجار ، ويخفون حقيقتهم على غير المقربين من أتباعهم ويرسلون دعاتهم إلى جميع البلاد الاسلامية للتبشير بقرب ظهور المهدى المنتظر (١) . أما جهاز الدعوة فقد كان يقوم على تقسيم العالم الاسلامى إلى مناطق تسمى كل واحدة منها (جزيرة) ، مثل جزيرة مصر ، وجزيرة العراق ، وجزيرة فارس ، وهكذا . وعدد الجزر اثنتا عشرة جزيرة ، يقوم على كل منها رئيس للدعاة يسمى (حجة) ؛ وكان يساعد الحجة ثلاثون (نقيباً) ، وكل نقيب منهم يتصل بأربعة وعشرين (داعياً) ، منهم اثنا عشر داعياً ظاهراً واثنا عشر داعياً محجوباً مستتراً . وبذلك نرى أن عدد أفراد هذا الجهاز يقرب من (٨٧٠٠) ، وذلك باستثناء عدد آخر من الدعاة يعملون مع الامام فى مقره ، وتتكون منهم هيئة القيادة العليا . وقد قدر النوبختى عدد أتباعهم فى القرن الثالث فى الكوفة واليمن بنحو من مائة ألف (٢) .

وكان لكل طبقة من طبقات هذا الجهاز عمل خاص لا تتعداه . فداعى النهار — أو الداعى المكاسر ، أو الداعى المكالب — وهو أدنى طبقات هذا الجهاز مثلا ، وظيفته التى لا يتعداها هى تشكيك الجماهير فى عقيدتهم وانتهاز كل فرصة أمامهم لالقاء الأسئلة الدقيقة على العلماء والفقهاء . وهى أسئلة تدور حول مشكلات الدين أو تفسير بعض المتشابه من آيات القرآن . يلقى هذه الأسئلة فى براءة كأنه طالب علم يريد الافادة ، فاذا ظهر

(١) بل لقد كان الامام مبالغة منه فى التستر يسمى الدعاة باسمه ويلقبهم بلقبه . وفى هذه المبالغة فى التستر يرجع خروج القرامطة عن طاعته . فقد استطاعوا أن يعرفوا اسم الامام ، ولقبهم صاحب هذا الاسم وبارك حركتهم . فلما عادوا إليه مرة أخرى وجدوا شخصاً آخر يحمل الاسم واللقب . فشك زعماء القرامطة فى الامام وفى البعثة نفسها . وتكررت القصة نفسها مع أبى عبد الله الشيعى داعية الفاطميين الذى أسس دولتهم فى المغرب . فهم بالخروج عليهم حين رأى أن الامام الذى ظهر فى المغرب غير الامام الذى قابله من قبل فى (سلمية) ودعا إليه . وكاد ينجح فى حركته لو لم يبادر عبيد الله المهدى إلى قتله وقتل أخيه أبى العباس — طائفة الاسماعيلية ص ٢٥ - ٢٦ ، ١٥

(٢) فرق الشيعة ص ٧٦ .

عجز العالم والتف حوله الناس يلتمسون عنده الجواب زادهم حيرة بمزيد من الأسئلة دون أن يجيب . مثل : لم جعل الله السموات سبعاً ولم يجعلها أكثر أو أقل ؟ ولم أوجب الغسل من المني مع طهارته واكتفى بالاستنجاء من البول مع نجاسته؟ ولم كانت الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ وما معنى الحروف التي في أوائل السور ؟ ومن هم حملة العرش الثمانية ؟.. إلى مثل هذه الأسئلة التي يستطيع القارىء أن يراجع نماذج منها في خطط المقريزي (١) . يوجه الداعي مثل هذه الأسئلة للعلماء كأنه يطلب الاستفادة ، ويوجهها للناس مظهراً حيرته كأنه يشك في العقيدة . يفعل ذلك وهوفي الوقت نفسه يظهر النسك والتعبد . ويبدو أمام النبي سنياً متطرفاً ، وأمام الشيعي شيعياً متعصباً ، وأمام الصوفي صوفياً من الأقطاب . فاذا أنس من أحدهم ميلا إليه وتطلعا إلى الخروج من هذا الشك بالعلم اليقين ، أوصله بعد مراوغة وتمنع وتدلل إلى داع أرقى منه مرتبة ، مهولا للفريسة قبل أن يلقاه في غزارة علمه وتضلعه الذي يزول عنده كل شك . كل هذا والغر الذي وقع في شباكهم لا يعلم الصفة المذهبية للداعي ، ولا يزال يتنقل بين الدعاة في مختلف المراتب ، كلما استوثق منه داع نقله إلى الأعلى منه ، وخطا به خطوة جديدة في المكاشفة بأسرار المذهب (٢) .

ويختار الامام من رؤساء الجزر مجلسه الذي هو بمثابة القيادة العليا للدعوة وعلى رأسه (داعي الدعاة) ، الذي يعتبر أعلى مرتبة ظاهرة . وإلى جانبه دليل توجد مناصب أخرى سرية تعتبر ضمن هذا الجهاز الأساسي الذي يحيط بالامام : مثل (حجة الامام) الذي لا يعرفه أحد حتى داعي الدعاة نفسه ، و (باب الأبواب) الذي لا يعرفه إلا الامام نفسه ، (وداعي البلاغ) . وأعمال هذه الرتب ووظائفها وأسماء الذين شغلوها لا يزال سراً لم يكشف عنه البحث حتى الآن (٣) .

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ عند كلامه عن وصف الدعوة وترتيبها .

(٢) طائفة الاسماعيلية ١٣٣ – ١٣٥ – ديوان المؤيد في الدين ص ٥٤ – البصير في الدين ٨٦ – ٨٩ .

(٣) طائفة الاسماعيلية ص ١٤٠ – ١٤٢

وكانت الدعوة تجرى على نسق الجمعيات السرية كالماسونية فى مراتب متدرجة فى الأهمية عددها تسع . يتنقل فيها التابع طبقاً لاستعداده وثقة القائمين على الدعوة فى صدق استجابته وإخلاصه وقدرته على كتمان الأسرار. ويقطع على نفسه عند دخوله فى الدعوة الأولى عهداً يتعهد فيه (بأن لا يفشى لهم سراً ، وأن لا يظاهر عليهم أحداً ، وأن لا يطلب لهم غيلة ، وأن لا يكتمهم نصحاً ، ولا يوالى لهم عدواً) . ثم يطالبه الداعى بعد ذلك بمبلغ من المال يقدره ، حسب ما يعرفه من حالته المالية ، وهو رسم الدخول فى الدعوة (١)

وقد أورد لنا المؤرخون المتأخرون مثل النويرى والمقريزى مما أدركوه من بقايا تراث الشيعة شذوراً ضافية من محتويات الدعوة السرية وتفاصيلها . والذى يقرأ ما جاء فيها يدرك بوضوح أن الدعوة الباطنية تذهب إلى أبعد من التبشير بالمذهب الفاطمى والدعوة لآل البيت . فهى تستحيل فى آخر الأمر إلى عقيدة فلسفية حرة مشبعة بالالحاد وإنكار الديانات كلها (٢) .

وقد كان التأويل هو الباب الذى يدخل منه الباطنية إلى أغراضهم الهدامة . ذلك أنهم يزعمون لأتباعهم أن لكل ظاهر محسوس تأويلا باطنياً لا يعرفه إلا الراسخون فى العلم وهم الأئمة . وعنهم وحدهم يؤخذ هذا العلم الذى يرثونه خلفاً عن سلف . وزعموا أن علم الباطن من عند الله ، خص به على بن أبى طالب ، فخص النبى بالتنزيل وخص علياً بالتأويل (٣) . وورث الأئمة من نسله التأويل . والباطنية يشركون مع فرق الشيعة الأخرى فى ولاية الامام (أى معرفته والانقياد التام له واعتقاد عصمته) ويجعلونها أساساً للعبادات كلها لا تصح بغيرها (٤) . ولكنهم ينفردون دونهم بما

---

(١) راجع نظام الدعوة ودرجاتها ، ونص العهد الذى يؤخذ على الداخل فى خطط المقريزى (مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤) ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٣٥

(٢) الحاكم بأمر الله ص ٢٦٦ .

(٣) طائفة الاسماعيلية ١٦١

(٤) بل إن من غلاتهم من أمر أتباعه بطرح جميع التكاليف الدينية ، بزعم أن الامام هو المسئول الأول عن أتباعه ، وهو الذى يتحمل بدلهم الحساب ما داموا يطيعونه ويعتقدون إمامته — طائفة الاسماعيلية ص ٨١ .

يضفونه على الامام من صفات لا تعرفها فرق الشيعة الأخرى ، وهي صفات ترفع أئمة الشيعة الباطنية إلى مرتبة لا تكاد تمت فيها للبشرية بصلة . ففي تأويلاتهم الباطنية أن الامام هو (وجه الله) و(يد الله) و(جنب الله)، وأنه هو الذي يحاسب الناس يوم القيامة فيقسمهم بين الجنة والنار . وهو (الصراط المستقيم) و (الذكر الحكيم) و (القرآن الكريم) (١) وتأويل الصلاة عندهم هو الاتجاه القلبي للامام . وتأويل الصوم هو عدم إفشاء أسرار الدعوة . وتأويل الحج هو زيارة الامام (٢) . وجعلوا أسماء الله الحسنى التي جاءت في القرآن الكريم أسماء لما سموه (العقل الكلي) زاعمين أنهم ينزهون الله عن جميع ما يليق بمخلوقاته من الأسماء والصفات . وأطلقوا على (العقل الكلي) اسم (المبدع الأول) أو (السابق) . وهو في زعمهم المرموز إليه في القرآن بـ (القلم) . ثم قالوا أن (العقل الكلي) أبدع (النفس الكلية) أو (المبدع الثاني) أو (التالي) ، وهو في زعمهم المرموز إليه في القرآن بـ (اللوح المحفوظ) ، وقالوا إن (اللوح) له صفات (القلم) نفسها ، وهي أسماء الله الحسنى — جل وعلا — ولكن القلم أفضل بالسبق . وقالوا إن (القلم واللوح) أو (السابق والتالي) اشتركا في إيجاد جميع المخلوقات . ومن هذا نرى أن كل ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خلعه الباطنية على (العقل الكلي) . ثم ذهبوا — حسب عقيدتهم في المثل والممثول — إلى أن العقل الكلي في العالم العلوي يقابله الامام في العالم الجسماني . فكل صفات (العقل الكلي) هي أيضاً صفات للامام . لأن الامام (ممثّل) للعقل الكلي . فالامام إذن هو الواحد الأحد الفرد الصمد المنتقم الجبار .. الخ. ويبدو ذلك واضحاً جلياً في شعر شعرائهم الذي مدحوا به الأئمة (٣)

---

(١) طائفة الاسماعيلية ص١٥٦ — ١٥٧ — ديوان المؤيد في الدين ص٦٩ — ٧١ ، ٨١—٨٩).

(٢) طائفة الاسماعيلية ص ١٦٤ — ديوان المؤيد ص ٨٨ — ٨٩

(٣) طائفة الاسماعيلية ص ١٥٧ — ١٥٨ — ديوان المؤيد ص ٩٤ — ٩٦ — الحاكم بأمر الله ص ٢٧١ — وراجع نظرية المثل والممثول في ديوان المؤيد ١٠٦ — ١٠٨ وراجع الخطط المقريزي ٢ : ٣٣٢ في كلامه عن الدعوة الثانية وما بعده .

وواضح من ذلك كله أن عقائد الباطنية مزيج عجيب من المذاهب والآراء الفلسفية القديمة . لذلك كان من أصح ما وصفت به أهداف هذه الدعوة ما قاله رينهارت دوزى R. Dozy في برنامج عبد الله بن ميمون حين وصفه بأنه يهدف إلى الجمع بين أحرار المفكرين الذين لا يرون في الدين سوى وسيلة لاستعباد الشعوب ، وبين الغلاة من جميع الطوائف . وأن يجعل من المؤمنين السذج آلات صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يتخذ من هذا الجهاز الضخم وسيلة لرفعه أو رفع أبنائه في الوقت المناسب إلى الملك . لذلك لم يبحث عبد الله بن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين صفوف الشيعة الخلص ، ولكن بين الثنويين وطلاب الفلسفة اليونانية . ولم يكن يعتمد الا على الطائفة الأخيرة . وإليهم وحدهم كان يفضى بسره ، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وسخرية . وأن باقى البشر — أو الحُمُر كما يسميهم — ليسوا أهلا لفهم هذه المبادىء . وكان يحرص أشد الحرص على أن لا يتجاوز المتدينون الذين يخدعون بدعوته ويحصلون له الطاعة المرتبة الأولى من دعوته (١) .

أصبح أتباع الدعوة الباطنية — والقرامطة منهم على الخصوص — قوة رهيبة تبعث الرعب في القلوب منذ القرن الرابع . ففاضت كتب التاريخ بأخبار غاراتهم الوحشية المدمرة على المدن الآمنة وعلى قوافل الحجاج . ومن أفظعها ما رواه ابن الأثير في حوادث سنة ٣١٧ من غارة أبي طاهر القرمطي على مكة يوم التروية — وهو اليوم الذى يسبق وقفة عرفة وفيه يتجمع الحجاج في مكة للخروج إلى منى — ونهبه الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام وفي داخل الكعبة ، وقلع الحجر الأسود وإنفاذه إلى هجر (٢) وقلع باب البيت والميزاب وطرح القتلى في بئر زمزم وقسم كسوة الكعبة بين أتباعه (٣) .

---

(١) انتهى كلام دوزى ملخصاً . نقلا عن « الحاكم بأمر الله » ص ٢٨٥

(٢) وقد ظل في حيازتهم ثنتين وعشرين سنة قبل أن يردوه في سنة ٣٣٩ — راجع ابن الأثير في حوادث هذا العام ٦ : ٣٣٥

(٣) وفي تاريخ أبي الفداء « المختصر في أخبار البشر » تفصيل أكثر لفظائعهم في هذا اليوم .

وزاد فى خطورة الباطنية أنهم كانوا يعتصمون بجهاز دقيق التنظيم يعتمد على تخطيط محكم . فكانوا يعيشون فى ستر ، لا يعرف أحد حقيقة مذهبهم . وعندما تواتى الفرص كان يظهر للناس أن عدداً كبيراً منهم يعملون فى بلاط الأمراء والخلفاء ويندسون بين صفوف العامة دون أن تعرف حقيقتهم ، فكانوا فى مراكزهم هذه يمهدون السبيل لسيادة دولتهم فى انتظار الوقت الملائم (١) .

والواقع أن سلوك الفاطميين والقرامطة كما تمثله كتب التاريخ من أقوى الدلائل على عدائهم للاسلام والمسلمين . فمن ذلك جرائم القرامطة الوحشية التى تصور تعطشاً إلى دماء المسلمين . ومنه اجتماعاتهم الصاخبة التى يبيحون فيها نساءهم لرفقاء الدعوة ، إلى جانب ما شاع من إباحتهم اللواط (٢). ومنه توسع الفاطميين فى استخدام اليهود والنصارى ؛ وفى توليتهم الوزارة وتحكيمهم فى رقاب المسلمين وبلغهم غاية التسامح لهم والتكريم ، فى الوقت

---

(١) طائفة الاسماعيلية ص ٩٢ وما بعدها — ابن الأثير ٦ : ١٧٧ حوادث سنة ٣١٢ فى مساعدة ابن الفرات وزير المعتضد للقرامطة ، ٦ : ١٩٤ حوادث سنة ٣١٦ فى اظهار القرامطة أنفسهم بعد غارات أبى طاهر على السواد .

(٢) تراجع أمثلة لغارات أبى طاهر القرمطى على الحجاج فى ابن الأثير سنة ٣١٢ ، ٣٢٣ ٦ : ١٧٧،٢٤٩ . ومثال آخر فى غارة ذكرويه عليهم سنة ٢٩٤ — ٦ : ١١٥ . وتراجع أمثلة فى غارات القرامطة على المدن فى المرجع السابق — غارتهم على الكوفة سنة ٢٩٣ (٦ : ١١٤)، سنة ٣١٥ (٦ : ١٨٦) ، سنة ٣٢٥ (٦ : ٢٥٩) وعلى بلاد الجزيرة سنة ٣١٦ (٦ : ١٩١) وعلى دمشق سنة ٢٩٠ (٦ : ١٠٤) وعلى مدن الشام سنة ٢٩٣ (٦ : ١١٣) وعلى المدن والقرى فى البحرين سنة ٢٨٧ (٦ : ٩٤) .

وتراجع فى إباحتهم الفروج وإتيان الذكران وترك الصلاة والصيام وغيرها من التيادات مختصر الفرق بين الفرق ص ١٧٥ . تاريخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٢ عند كلامه عن مذهب الشلمغانى الذى أحدث مذهباً غالياً فى التشيع (٦ : ٢٤١ — ٢٤٢) ، سنة ٣٠١ عند كلامه عن قتل أبى سعيد الجنابى حين راود غلامه عن نفسه فى الحمام (٦ : ١٤٧) . وتراجع قصة المرأة التى وقعت فى معسكر القرامطة حين كانت تبحث عن ولدها الذى استغووه ، فى حوادث سنة ٢٩٠ (٦ : ١٠٥) . وتراجع كذلك ما رواه محمد بن مالك الحمادى اليمانى عما عاينه بنفسه من فضائحهم فى كتابه (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) ولا سيما ص ١١ — ١٦ . وتراجع كذلك النوبختى فى كتابه (فرق الشيعة) ص ٧٤ .

الذى كانوا يضيقون فيه على أهل السنة إلى حد الاضطهاد . حتى لقد قال شاعرهم (الرضى بن البواب) حين عظم نفوذ اليهود وشغلوا مناصب الدولة فى عهد المستنصر ، وكانت أمه أمة فى بيت أبى سعيد التسترى اليهودى(١) .

يهود هـذا الزمان قـد بلغوا غاية آمالهم وقـد ملكوا
العـز فيهم والمـال عندهمو ومنهم المستشـار والملك
يا أهل مصر لقـد نصحت لكم تهوّدوا فقـد تهود الملك

ومما ترويه كتب التاريخ فى هذا الباب قصة المرأة التى عرضت للعزيز بن المعز فى موكبه مادة يدها بورقة كأنها ظلامة . فلما قضاها وجد فيها (بالذى أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطوروس ، وأذل المسلمين بك ، إلا ما كشفت ظلامتى) — وكان العزيز قد ولاها الوزارة — وطلبوا المرأة فاذا هى هيكل من جريد النخل (٢) . ومما تحفظه كتب التاريخ تنصيب الحاكم بأمر الله خاليه النصرانيين بطريركين لطائفتيهما فى بيت المقدس وفى القاهرة (٣) .

وما ترويه كتب الفرق عن حرصهم الشديد على كتمان دعوتهم وعدم تصريحهم للعامة بعقيدتهم ، واستعمالهم أبجدية خاصة فى تدوين أسرارهم . مع تلونهم وظهورهم فى كل بيئة بما يناسبها ، وتقربهم إلى كل جماعة بما يلائم عقائدهم وطبائعهم . كل ذلك يؤكد أنهم أصحاب دعوة سرية هدامة ، وأن أهدافهم الحقيقية تختلف عن ظاهر أقوالهم وأعمالهم (٤) .

* * * *

(١) تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢١٠ .

(٢) الحاكم بأمر الله ص ٨١ .

(٣) الحاكم بأمر الله ص ٨٦ . وراجع أمثلة فى كتاب (تاريخ الدولة الفاطمية) ص ٢٠٢ — ٢١٥ . وراجع أمثلة لتشددهم مع أهل السنة من المسلمين فى ص ٢١٩ . وراجع كذلك كتاب (الحاكم بأمر الله) ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ .

(٤) راجع فى تطور دعوتهم وتلونها كتاب (طائفة الاسماعيلية) ص ١٤٧ — ١٥١ . وراجع فى استعمالهم أبجدية خاصة (ديوان المؤيد فى الدين) ص ١٣١

هؤلاء هم الباطنية والقرامطة كما صورتهم كتب التاريخ والفرق وماظهر للناس من كتبهم . فأين مكان المتنبي من هذه الصورة ومن هذه المبادىء ؟

لم تتجه عناية الذين أرخوا للمتنبي من الأقدمين إلى هذه الزاوية من حياته وشعره . أما المحدثون فقد اختلفوا فى شأنها . فذهب بلا شير إلى أن المتنبي لم يكن قرمطياً ، ولكنه تأثر بآراء القرامطة (١) . وذهب ما سينيون إلى أنه كان قرمطياً (٢) . واتبع طه حسين رأى بلاشير وبالغ فيه ، فبنى كتابه عن المتنبي على أنه كان داعية قرمطياً . وناقش عزام أدلة الذين ذهبوا هذا المذهب ، وانتهى إلى أن قرمطية المتنبي دعوى يعوزها الدليل (٣) . أما نحن فنرجح أن المتنبي كان عدوا للقرامطة خاصة ، وللباطنية على وجه العموم ، وأنه ظل يناصبها العداء ، وظلت هى تتربص به وتكيد له ، حتى ظفرت به وقتلته . ونحن نعتمد فى حكمنا هذا على تدبر شعره فى ضوء ما عرفناه عن الباطنية والقرامطة ، وفى ضوء ما نعرفه عن ظروف عصره السياسية والاجتماعية ، وفى ضوء ما يفضى إليه تمحيص الروايات المتضاربة التى وصلت إلينا عن حياته .

فالقيم التى نجدها المتنبي فى شعره تتعارض مع مبادىء الباطنية والقرامطة بل هى تناقض المبدأ الأساسى الأول فى النظرية الشيعية ، وهو « الولاية » . والمقصود به عندهم كما قدمنا هو ولاية الإمام . فيجب على الشيعى أن يعرف إمام عصره وأن يؤمن بإمامته ، بكل ما هو معروف عندهم من صفات الإمامة ، وفى مقدمتها العصمة ، وأن يخلص له وينقاد لأوامره . والولاية عندهم ركن أساسى من أركان الدين ، بل هى الركن الأول الذى تبطل ببطلانه بقية الأركان . والباطنية — ومنهم القرامطة — يغلون فى ذلك غلوا

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية — مادة « المتنبي » .

(٢) ذكرى أبي الطيب ص ٢٥٧ .

(٣) ذكرى أبي الطيب ص ٢٥٥ — ٢٦٠ .

يخرجهم عن الإسلام إلى الشرك كما رأينا . فالإمام عندهم له صفات الرسل . بل له الصفات التي يجعلها المسلمون من أسماء الله الحسنى – جل وعلا – والإمام لا يبلغ هذه المرتبة بالاجتهاد في تزكية نفسه وتطهيرها . ولكنه يرثها بنص من الإمام السابق الذي يعتمد في ذلك على الوحي . فالنظرية الشيعية – والباطنية على وجه الخصوص – تعتمد على الوراثة ولا مكان فيها للكسب . فسبيل الشيعي إلى المثل الأعلى هو التغني بآل البيت الذين هم سنده وعدته وذخره ، والتعلق بهم ، والتفاني في الانقياد للإمام . وشعر المؤيد في الدين داعي الدعاة مثل حي لتصوير هذه القيم . وقد وصف ذلك الشاعر الذي كان يشغل أكبر منصب من مناصب الجهاز الظاهر في الباطنية الفاطمية ، مقابلته الأولى للخليفة الفاطمي المستنصر وصفاً تبدو فيه هذه القيم في أجلى صورها ، فقال في كتابه (السيرة المؤيدية) (١) :

«وكنت في مسافة ما بين السقيفة الشريفة ، والمكان الذي ألمح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية . فلم تقع عيني عليه الا وقد أخذتني الروعة وغلبتني العبرة ، وتمثل في نفسي أنني بين يدي رسول الله وأمير المؤمنين ماثل ، وبوجهي إلى وجههما مقابل . واجتهدت عند وقوعي على الأرض ساجداً لولي السجود ومستحقه أن يشفعه لساني بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته بعجمة المهابة معقوداً وعن مزية الخطابة معزولا ..... ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لساني بنطق ولا يهتدي لقول . وكلما استرد مني الحاضرون كلاما أزددت إعجاماً ، ولعقبة العي اقتحاماً . وهو – خلد الله ملكه – يقول : دعوه حتى يهدأ ويستأنس . ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها ، وتركتها على عيني وصدري ، ودعيت . وخرجت».

أما المتنبي فهو يعول فيما يتغنى به من قيم على الكسب ، ولا يقيم وزناً للوراثة . بل يصرح بأن الأحساب لا تغني عن صاحبها شيئاً إذا لم يكن صاحب الحسب متصفاً بالخلق الذي يصدق نسبه ويزكيه . فالذين يتقاربون في الطبائع

---

(١) ديوان المؤيد في الدين ص ٣٧ .

والخلق هم الأقرباء ولو تباعدت بينهم الأنساب . والذين يتباعدون فى الطبائع والأخلاق ليسوا بأقرباء وإن جمعت بينهم الأنساب . فالعلوى عند المتنبى علوى بأعماله لا بنسبه . يقول فى قصيدة مدح بها أحد أشراف العلويين فى الرملة ، بعد تمنع من جانبه ، وإلحاح من والى الاخشيديين فى المدينة (١) .

نصرت عليا يا ابنه ببواتر ... من الفعل لا قلٌّ لها فى المضارب
إذا لم تكن نفس النسيب كأصله ... فماذا الذى تغنى كرام المناصب
وما قربت أشباهُ قومٍ أباعد ... ولا بعدت أشباه قوم أقارب

ويقول من قصيدة فى مدح كافور الاخشيدى (٢) .

وآنف من أخى لأبى وأمى ... إذا ما لم أجده من الكرام
أرى الأجداد تغلبها كثيراً ... على الأولاد أخلاق اللئام
ولست بقانع من كل فضل ... بأن أغزى إلى جد همام
عجبت لمن له قدٌ وجدٌ ... وينبو نبوة القضيم الكهام
ومن يجد الطريق إلى المعالى ... فلا يذر المطىَّ بلا سنام
ولم أر فى عيوب الناس عيبا ... كنقص القادرين على التمام

وتتلخص القيم الخلقية التى مجدها المتنبى وملأ بها شعره فى صفات العفة المترفعة عن الشهوات ، والمروءة والفتوة والاباء وتحمل تكاليف الجهاد . وهى كما رأينا صفات لا يقيم لها القرمطى وزناً . فالداعى الباطنى يحصر كلامه فى التغنى بالامام وفى جمع القلوب عليه . وهو يرى أن هذه القيم الخلقية لا تغنى عن صاحبها شيئاً إذا لم يتول الامام . فاذا تولى الامام فالانحراف عنها ليس بذى خطر . بل شريعة الباطنيين والقرامطة تبيح لأتباعها المحرمات وتسقط عنهم التكاليف كما رأينا .

---

(١) الديوان — نشر عزام — ص ٢٠٩ .
(٢) الديوان — نشر عزام ص ٤٧٥ .

يقول المتنبي في إحدى قصائده الشامية في انطاكية (١) :

إني على شغفي بما في خُبرها ... لأعف عما في سرابيلاتها
وترى المروءة والفتوة والأبـ ... ـة في كلّ مليحة ضرائها
هن الثلاث المانعاتي لذتي ... في خلوتي لا الخوف من تبعاتها
ومطالب فيها الهلاك أتيتها ... ثبتَ الجنان كأنني لم آتها

ويقول في إحدى كافورياته (٢) :

وللسر مني موضع لا يناله ... نديم ولا يفضي إليه شراب
وللخَوْد مني ساعة ثم بيننا ... فلاة إلى غير اللقاء تجاب
وما العشق إلا غرة وطماعة ... يعرض قلب نفسه فيصاب
وغيرُ فؤادي للغواني رَمِيّة ... وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة ... فليس لنا إلا بهن لعاب
أعز مكان في الدنا سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب(٣)

ويقول من قصيدته التي مدح بها دكّير بن لشكَرْوَز قائد جيوش الخلافة لانجاد الكوفة (٤) :

محب كني بالبيض عن مرهفاته ... وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني ... جناها أحبائي وأطرافها رسلي
عدمت فؤاداً لم تبت فيه فضلة ... لغير الثنايا الغر والحدق النجل
ذريني أنل ما لا ينال من العلا ... فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين لقيـان المعـالي رخيصة ... ولابد دون الشهد من إبر النحل

---

(١) الديوان ص ١٧٠
(٢) الديوان ص ٤٧٨ .
(٣) وهنا نجد الكتاب مصدراً للثقافة عند المتنبي . ومصدر الثقافة والمعرفة عند القرمطي هو الإمام وما يسمونه علم الباطن وهو عندهم علم الحقيقة .
(٤) الديوان ص ٥١٩ .

والمتنبي مع ذلك لم يمدح من العلويين إلا رجلين ، أحدهما العلوى الذى كان يقيم فى الرملة ، والذى أشرنا إلى أبيات من القصيدة التى مدحه بها ، والآخر هو محمد بن عبد الله العلوى الذى كان يسكن الكوفة . وقد مدحه فى صباه قبل أن يرحل عن العراق إلى الشام (١) .

بل نحن على العكس من ذلك نجد فى شعره تعريضاً ببعض العلويين وتهكما بهم . فهو يتهم بعض العلويين فى (طبرية) بأنهم أدعياء ، فيقول من قصيدة له فى مدح التنوخيين بالشام . وكان قد رحل عنهم إلى طبرية . ولكنه لم يلبث أن عاد ساخطاً على العلويين الذين بها (٢)

لولاك لم أترك البحيرة(٣) والغـ ـورُ دفىء وماؤها شبم

ثم يقول بعد أبيات وصف فيها جمال البحيرة وما يحفها من مناظر خلابة :

يشينها جربها على بلد تشينه الأدعياء والقـــزم

ويقول فيهم من قصيدة أخرى مدح فيها الحسن بن عبد الله بن طغج — وهو ابن أخى الأخشيد — فى الرملة (٤) :

وفارقت شر الأرض أهلا وتربة بها علوى جده غير هـاشم

ويقول فى التعريض بآخرين يدعون النسب العلوى : فيتهكم المتنبي بجهلهم

---

(١) الديوان ص ٢٠٩ ، ٢ وقد جاء فى القصيدة الأولى :

كذا الفاطميون كانوا فى أكفهم أعز اعداء من خطوط الرواجب

وقد فهم بعض الباحثين من هذا البيت أن المتنبي يذكر الفاطميين أصحاب الدولة المعروفة فى المغرب ومصر . والواقع أن المتنبي لم يقصد من كلمة (الفاطميين) إلا العلويين . وقد عرض المتنبي بالفاطميين فى أكثر من موضع فى شعره

(٢) الديوان ص ٨٤

(٣) بحيرة طبرية

(٤) الديوان ص ١٩٥

لأن الذى يدعون الانتساب إليه ليس له نسل (١) .

أماتكم من قبل موتكم الجهل وجبركم من خفة بكم النمل
ولو كنتم ممن يدبر أمره لما كنتم نسل الذى ماله نسل

ويقول ، حين بلغه أن بعض مدعى العلوية قد أعدوا له كمينا فى (كفر عاقب) (٢) :

أتانى وعيد الأدعياء وأنهم أعدوا لى السودان فى كفر عاقب
فلو صدقوا فى جدهم لحذرتهم فهل فىّ وحدى قولهم غير كاذب ؟

فهل المقصودون بالتعريض هم أدعياء طبرية الذين أشار إليهم من قبل كما فسره ابن جنى ؟ ذلك جائز . ولكن (كفر عاقب) التى يذكر الشاعر أنهم قد أعدوا له فيها كميناً قرية من أعمال حلب . وأين حلب من طبرية ؟ أم أن الشاعر يعرض فى شعره بالاسماعيلية من دعاة الفاطميين الذين كانوا منتشرين فى كل مكان ، وفى الشام ومصر على وجه الخصوص ؟ من الجائز على كل حال أن يكون المقيمون فى طبرية من عملاء الاسماعيلية ودعاتهم ؟ وإلا فكيف يتصور أن ناساً يمكنون فى طبرية يعدون كميناً فى حلب ما لم يكونوا منتمين إلى إحدى العصابات أو الجماعات الدقيقة التنظيم ؟ .

شعر المتنبى مملوء بذكر هؤلاء الكائدين الذين تعقبوه فى كل مكان ، وطاردوه فى كل بلد ذهب إليه من بلاد الشام ، حتى تركوه فى قنق لا يعرف

---

(١) الديوان ص ١٩١ . ولم يسم الديوان المقصود بهذا الشعر . ولكنه أشار إلى أن المقصود هم بعض العلويين من ولد العباس فى طبرية . وأكثر الأعلام الواردة فى هذه الفترة التى سبقت اتصال المتنبى بسيف الدولة مجهول . وأيا ما كان المقصود بالأبيات فهى فى الوقت نفسه صالحة لأن تكون فى الفاطميين ، فهم يدعون الانتساب لمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. والتاريخ لا يعرف لمحمد هذا نسلا .

(٢) الديوان ص ٢٠٩

معه طعم الاستقرار . يقول من قصيدة له فى ابن عمار الأسدى — وكان يلى قتال طبرية للخلافة العباسية (١) :

ألفتُ ترحلى وجعلت أرضى ... قُتودى والغُريرى الجُلالا(٢)
فما حاولت فى أرض مقاما ... ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تحتى ... أوجهها جنوباً أو شمالا
أرى المتشاعرين غروا بذمى ... ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مُرٌّ مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

ويقول ، وقد مر بمدينة (جَرَش) متعجلا ، يعتذر إلى صديق له بها(٣)

لا تنكرن رحيلى عنك فى عجل ... فانى لرحيلى غير مختار
وربما فارق الانسان مهجته ... يوم الوغى غير قال خشية العار
وقد منيت بحساد أحاربهم ... فاجعل نداك عليهم بعضَ أنصارى

ويصور المتنبى هؤلاء الأعداء الذين يترصدونه فى أسفاره ، فيصفهم بأنهم لصوص يقطعون الطريق ويعيشون فى أعماق الصحراء ، يرتدون ثياباً بالية لا تكاد تستر أجسادهم ، ويعيشون على ما يجدونه فى الصحراء القاحلة من بيض الضب . فاذا مر بهم أخذوا يتفرسون فيه ويسألونه عن اسمه ، وكأنهم يشكون فى أنه هو المتنبى . فيبالغ فى التظاهر بالجبن وعدم الخبرة بالقتال ، وبالجهل وعدم القدرة على إعراب الكلام . ومع ذلك يكاد ما طبع عليه من الفصاحة أن يفضحه . وكأنما كانت متاعب المتنبى وكثرة أعدائه وتعرضه للخطر تأتيه من فطنته ومن غباء الناس ، ومن إدراكه ما لا يدركون . يقول فى إحدى قصائده الشامية بأنطاكية (٤) .

---

(١) الديوان ص ١٢٨
(٢) القتد خشب الرحل . الغرير فحل كريم تنسب له الابل . الجلال العظيم
(٣) الديوان ص ١٥٢
(٤) الديوان ص ١٥٥ .

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن ... يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن
وإنما نحن فى جيل سواسية ... شر على الحر من مقم على بدن
حولى بكل مكان منهم خلق ... تخطى إذا جئت فى استفهامها بمن
لا أقترى بلداً إلا على غرر ... ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكا ... إلا أحق بضرب السيف من وثن
... ومدقعين بسبروت(١) صحبتهم ... عارين من حلل كاسين من درن
خراب بادية غرثى بطونهم ... تمكن الضباب لهم زاد بلا ثمن(٢)
يستخبرون فلا أعطيهم خبرى ... ومايطيش لهم سهم من الظنن
وخلة من جليس أتقيه بها ... كما يرى أننا مثلان فى الوهن
وكلمة فى طريق خفت أعربها ... فيهتدى فى فلم أقدر على اللحن

ويقول فى إحدى كافورياته ، مصوراً ترصد أعدائه له وهو فى طريقه إلى مصر (٣) :

فلو لم تكن فى مصر ماسرتُ نحوها ... بقلب المشوق المستهام المتيم
ولا نبحت خيلى كلابُ قبائل ... كأن بها فى الليل حملات ديلم
ولا أتبعت آثارنا عينُ قائف ... فلم ترَ إلا حافراً فوق منسم

ويصور هربه من مصر وسط جماعة من غلمانه المدربين على القتال (٤) :

تبدل أيسامى وعيشى ومنزلى ... نجائبُ لا يفكرن فى النحس والسعد
وأوجهُ فتيان حياء تلثموا ... عليهن لا خوفاً من الحر والبرد
وليس حياء الوجه فى الذئب شيمة ... ولكنه من شيمة الأسد الورد
إذا لم تُجزهم دارُ قومٍ مودةً ... أجاز القنا . والخوف خير من الود

---

(١) السبروت الأرض التى لا نبت فيها
(٢) مكن الضب بيضه .
(٣) الديوان ص ٤٥٦
(٤) الديوان ص ٥٤٧ . وراجع كذلك قصيدته اليمية ص ٥١٠ . وراجع فى وصف الرحلة ص ٤٨٨ – ٤٩٦ .

من هم هؤلاء الأعداء الذين ملؤوا حياة المتنبي وشعره ، وترصدوه في بلاط الملوك والأمراء ، وفي رحلاته في الصحراء ؟ وهل كانوا يعادونه لأسباب شخصية أم لأسباب سياسية ؟ إن سلوك المتنبي ومزاجه الحاد كان خليقاً أن يثير عليه كثيراً من العداوات . ولكنا لا نستطيع أن نخلي هذه العداوات والمكايد من الدوافع السياسية . فشعر المتنبي مملوء بالثورة على على الظلم وعلى الأوضاع الفاسدة التي كانت سائدة في عصره [1] ففي صباه المبكر في الكوفة نجده يقول [2] .

الى أي حين أنت في زي محرم ... وحتى متى في شقوة وإلى كم
وإلا تمت تحت السيوف مكرماً ... تمت وتقاس الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد ... يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

ويقول في شامياته الأولى [3] .

لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحربُ أقومُ من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها ... حتى كأن بها ضرباً من اللمم
بكل منصلت مازال منتظري ... حتى أدلتُ به من دولة الخدم

وفي البيت الأخير تعريض بخلافة بغداد التي يسميها (دولة الخدم) . وفيه تصريح بالاعداد لثورة يتولى هو قيادتها . بل هو يذهب في التصريح إلى أبعد من ذلك فيقول :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان أجابوا فما قصدي بها لهم ... وإن تولوا فما أرضي لها بهم

---

(١) جعل طه حسين هذا الشعر اكثر مظهراً لتأثر الشاعر بمذهب القرامطة .
(٢) الديوان ص ٣
(٣) الديوان ص ٢٨

ويقول فى قصيدة يمدح بها صديقاً له كان يسكن فى جبل (جرَش) (١):

لا افتخارٌ إلا لمن لا يضـــام ... مُدركٌ أو محارب لا ينام
ليس عزماً ما مرَّض المرء فيه ... ليس هماً ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيـ ... ـه غذاءٌ تضوّى به الأجسام
ذلّ من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجىء إليها اللئام
أقراراً ألـذ فـوق شرار ... ومراماً أبغى وظلمى يرام ؟
دون أن يشرق الحجاز وتجد ... والعراقان بالقنا والشام ؟

ويندد الشاعر فى قصيدة أخرى من قصائده الشامية بحياة الترف والفسق التى يغرق فيها الملوك والأمراء ، مهدداً بالانتقام (٢)

ولا تحسبن المجد زقّاً وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
علىّ لأهل الجور كلُّ طِمِرَّة ... عليها غلام ملء حيزومه غِمر (٣)

ويصور سخطه على ما آل إليه أمر الخلافة ، بعد أن تحكم فيها السفهاء والجهال من جنود الترك فبغوا وأفسدوا وأغرقوا أنفسهم فى الترف (٤)

وإنما الناس بالملوك ولا ... تفلح عُرْب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ... ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ... تُرعَى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخزّ حين يلبسه ... وكان يُبرَى بظفره القلم

---

(١) الديوان ص ١٤٩ . جرش فى جنوب شرق طبرية ، وفى شمال عمان .
(٢) ديوان المتنبى ص ١٧٤ .
(٣) الطمرة الفرس الوثابة . الحيزوم الصدر أو الخصر . الغمر الحدث .
(٤) ديوان المتنبى ص ٨٤ .

ويقول مصوراً ترف الحكام وضعف هممهم (١) :

فؤاد مـــا تسليـه المـــدام ... وعمر مثـل مـــا تهب اللئـام
ودهـر نـــاسه نـــاس صغار ... وإن كانت لهـم جثث ضخـام
أرانب غيرَ أنهـــم ملـــوك ... مفتحـة عيـونهـم نيـــام
بأجسام تحَرُّ القتـل فيهـا ... ومـــا أقرانهـــا إلا الطعـام
وخيل مـــا يخر لهـــا طعـين ... كأن قنـا فوارسها ثُمام(٢)
ولم أر مثـل جيراني ومثـلي ... لمثـلي عنـد مثلهـم مقـام
بأرض ما أشتهيـت رأيت فيها ... فليس يفوتهـــا إلا الكـــرام
فهلا كان نقـــص الأهـــل فيها ... وكان لأهلها منهـــا التمـام

ويقول فى إحدى مدائحه لسيف الدولة ، موازناً بين جده فى حرب الروم ، وبين لهوهم وعبثهم :

ألهى الممـالك عن فخر ذهبت به ... شربُ المدامة والأوتار والعود(٣)

ويقول فى القصيدة التى بعث بها إليه من الكوفة ، حين استدعاه بعد عودته من مصر فاعتذر :

ما الذى عنده تدار المنـــايـــا ... كالذى عنده تدار الشَّـــمول(٤)

فى ظل هذا الشعر الثائر نستطيع أن نناقش قصة ادعاء أبى الطيب النبوة التى لقب من أجلها فيما يقولون بالمتنبي . وقد ناقش عبد الوهاب عزام هذه الدعوة مناقشة علمية وافية فى كتابه «ذكرى أبى الطيب» انتهى منها إلى أن القصة تقوم على شائعات لا نصيب لها من الصحة . وأن التهمة التى

---

(١) الديوان ص ٩٢
(٢) الثمام نبت ضعيف .
(٣) الديوان ص ٤١٧ .
(٤) الديوان ص ٤٢٧ .

سجن من أجلها الشاعر فى (حمص) هى الدعوة للخروج على السلطان . كما انتهى إلى أنه سجن بعد استيلاء الاخشيديين على الشام سنة ٣٢١ وأنه ظل فى السجن إلى ٣٢٤ . وقصيدة المتنبى المشهورة :

أيا خدد الله ورد الخـــدود وقـد قـدود الحسان القدود

التى بعث بها من سجنه إلى والى حمص من قبل الاخشيد (إسحق بن كيغلغ) سنة ٣٢٤ خير شاهد على ذلك . فقد لخص فيها التهم الموجهة إليه حين قال (١)

وقيـل عدوت على العـــالميـ ن بين ولادى وبين القعود
فما لك تقبـــل زور الكلا م وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبأن بمحك اليهود (٢)
وكن فارقاً بين دعوى أردتُ ودعوى فعلتُ بشأو بعيـــد

فى هذه الأبيات ثلاث حقائق بارزة :

(ا) أنه متهم بالعدوان على جماعة المسلمين .

(ب) أنه سجن بتهمة التحريض على الثورة .

(جـ) أن خصومه الذين وشوا به يهود ، أو هو ينبزهم بأنهم يهود.

يدفع الشاعر التهمة الأولى بأنه كان فى ذلك الوقت صبياً صغيراً . وربما كان معنى ذلك أن التهمة الموجهة إليه كانت فى فترة صباه فى العراق وربما كانت هذه التهمة هى الاشتراك فى بعض غارات القرامطة . وقد كانت كثيرة على الكوفة التى اتخذوا معسكرهم فى قرية قريبة منها على ما ذكرناه . وسنعود إلى مناقشة هذه المسئلة .

---

(١) الديوان ص ٤٦ .

(٢) المحك الحجر فى الخصومة والمنازعة فى الكلام .

ويدفع المتنبي التهمة الثانية بأن هناك فرقاً بين الثورة وبين إرادة الثورة . وينبغي أن يحاسب الناس على ما فعلوا لا على ما يريدون أن يفعلوا . لأن الذي يريدون فعله علمه عند الله .

ثم هو يدفع التهم الموجهة إليه جميعاً بأنها من تلفيق خصومه الذين يصفهم بأنهم يهود . وقد ذكر المتنبي اليهود في ثلاثة مواضع أخرى من شعره : أشار مرة إلى يهودي يدعى له عند بدر بن عمار، ووصفه بأنه يبطن اليهودية ويظهر الاسلام . وصرح في موضع آخر باسم ذلك اليهودي وهو (ابن كروس) ووصفه بأنه أعور . وأشار في موضع ثالث إلى يهودي كان يمشي بالنميمة والفساد بين التنوخيين في اللاذقية (١) .

وقبل أن نقف عند هؤلاء الكائدين من اليهود الذين نجحوا في الايقاع بالشاعر والزج به في السجن ، وقبل أن نقف عند تهمهم تهمة الاشتراك في الاعتداء على جماعات المسلمين ، نحب أن نمضي مع شعر المتنبي لنلاحظ أن في هذا الشعر مايدل على أنه كان يسعى جاداً إلى الثورة ويعد لها . وقد سلك إلى ذلك طريقين . سلك طريق العنف أولا ، فأدى به إلى السجن . وسلك طريق السياسة ، بالاتصال بأصحاب السلطان محاولا أن يستميلهم

---

(١) الديوان ص ١٣٧ ، ١٥٣ ، ٦٧ وذلك قوله :

رأته المشيرُ عليك في بضعة ... فناظر متحن بأولاد المزرنا
وإذا التقى طرح الكلام معرضاً ... في مجلس أحد الكلام الذ هي
... أسى الذي أسى بربك كافراً ... من غيرنا معنا بفضلك مؤمناً

وقوله : (ص ١٥٣)

فيا ابن كروس يانصف أعمى ... وأن تنقب فيا نصف البصير
تعادينا لأنا غير لكن ... وتبغضنا لأنا غير صور

وقوله على لسان التنوخيين في ابن عم لهم مات زعم ذلك اليهودي أنهم شتموا فيه : (ص ٦٧)

رثى ابن أبينا غير ذي رحم لنا ... فباعدنا عنه ونحن الأقارب
وعرض أنا نشتوم بموته ... وإلا فزارت عارضية القواضب
أنيس صحيح أن بين بني أب ... لنبل يهودي تسدب العقارب

أو أن يحظى عندهم بمنصب ذى نفوذ يعينه على تحقيق أهدافه . ويبدو من شعره بوضوح أنه كان يسعى لأهداف سياسية معينه يتكتمها ولا يصرح بها .

أقام المتنبي فى أول عهده بالشام فى قرية تسمى « نحلة » قرب بعلبك . وهناك أخذ يعد نفراً ممن اجتمع إليه للقتال . ودعا الناس إلى دعوته . ولكنه لم يجد منهم إقبالا على الاستماع إليه . ولذلك شبه نفسه بينهم بالمسيح بين اليهود ، وبصالح فى ثمود (١) .

ما مقامى بأرض نحله إلا ... كمقام المسيح بين اليهود
مفرشى صهوة الجواد ولكـ ... ـن قميصى مسرودة من حديد
لأمة فاضة أضاة دلاص ... أحكمت نسجها يدا داوود(٢)
أنا فى أمة تداركها اللـ ... ـه غريب كصالح فى ثمود

ويتذكر المتنبي هذه الأيام فى آخر عمره وهو عند عضدالدولة فى شيراز . ويبدو من شعره أنه كان قد قضى فترة من الوقت فى البادية ، يصيف بين حمص وخناصرة ، ويشتو فى الصحصحان ، وسط جماعة يتدربون على القتال ، ويعيشون حياة بدوية تعتمد على النهب والغارات ، وعلى ما يتصيدونه من وحش الصحراء (٣)

أحب حمصا إلى خناصرة ... وكل نفس تحب تحياها
حيث التقى خدها وتفاح لبنـ ... ـان وثغرى على حياها(٤)
وصفت فيها مصيف بادية ... شتوت بالصحصحان مشتاها
إن أعشبت روضة رعيناها ... أوذكرت حملة غزوناها
أو عرضت عانة مقزعة ... صدنا بأخرى الجياد أولادها(٥)

---

(١) الديوان ص ١٣ . ولنذكر أن (نحله) كانت قرية لبنى كلب . وأن بنى كلب من القبائل التى استعراها القرامطة — ابن الأثير ٦ : ١١٣ — ١١٤ حوادث سنة ٢٩٣

(٢) لأمة فضة درع واسعة فضفاضة . اضاة برأة كالغدير . دلاص لينة ملساء .

(٣) الديوان ص ٥٥٢ .

(٤) الضمير الأول لصاحبته ، والثانى للخمر .

(٥) عانة قطيع من حمر الوحش . مقزعة متفرقة .

والخيـــل مطرودة وطاردة تجر طولى القنا وقصراها
يعجبها قتلها الكماة ولا ينظرها الدهر بعـد قتلاها

والمواضع التى أشار إليها المتنبي فى هذه الأبيات حول حمص هى المواضع التى قبض عليه فيها فى أول حياته فأودع السجن .

وابتغى المتنبي الوسيلة إلى تحقيق أهدافه وجمع الناس على دعوته الثائرة بالاتصال بشيوخ القبائل من البدو فلم يلق منهم استجابة . وصور رحلاته الشاقة وخيبة مسعاه فى كثير من شعره الشامى على وجه الخصوص . يقول فى احدى هذه القصائد (١) :

أوانا فى بيوت البدو رحـلى وآونـة على قتـد البعير
أعرض للرماح الصم نحرى وأنصب حـر وجهى للهجير
وأسرى فى ظلام الليل وحـدى كأنى منـه فى قمر منير
فقل فى حاجة لم أقض منها على شغفى بهـا شروى نقير
وقلة ناصر جوزيت عنهـا بشر منك يا شر الدهور

وحاول المتنبي أن يتصل بذوى النفوذ والسلطان يطلب منهم إمداده ومساعدته بالسلاح والرجال حينا ، ويطمع فى أن يظفر بولاية تعينه على تحقيق أهدافه حينا آخر . طمع عند كافور أن يوليه ولاية أو يعينه بجيش وبدا ذلك منذ القصيدة الأولى فقال (٢) :

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليـا
فقد شهب الجيش الذى جاء غاريا لسائلك الفرد الذى جاء عافياً

ثم ألح المتنبي على طلبه فى كل قصائده . فقال (٣) :

---

(١) الديوان ص ١٥٣
(٢) الديوان ص ٤٣٩ .
(٣) ص ٤٤٤ .

فارم بى ما أردت منى فإنى أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

وقال (١) :

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

وقال (٢)

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذى سهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب

وصرح فى هذه القصيدة بأن رحلته ليست لجمع المال . فقال يصف فرسه :

تهوى بمنجرد ليست مذاهبه للبس ثوب ومأكول ومشروب

وقال فى قصيدة أخرى (٣) :

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ولكنها فى مفخر أستجدّه

ومنى المتنبى بالفشل فى كل محاولة حاولها لتحقيق أهدافه . وأدرك آخر الأمر أنه لم يسلك الطريق الصحيح إلى هدفه ، حين ابتغى إليه الوسيلة بالاتصال بذوى السلطان عن طريق مدحهم وتملقهم . وعرف أن السيف وحده كان هو الطريق الصحيح . ولكنه كان يعود فيحدث نفسه فى حسرة قائلا : إن آماله تحتاج إلى المال والجاه ، وهو لا يملك المال ولا الجاه . وما أشقى الطموح إذا أعوزته الحيلة ، فكانت همته وآماله أكبر من إمكانه .

يقول من قصيدة له بمصر فى كافور (٤) :

---

(١) ص ٤٦٤
(٢) ص ٤٤٦
(٣) ص ٤٥٠
(٤) الديوان ص ٤٥٠ .

وأتعب خلق الله من زاد همّه ... وقصّر عما تشتهي النفسُ وُجدُه
فلا ينحلل في المجد مالك كله ... فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذي المجد كفه ... إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

ويقول بعد رحيله من مصر في قصيدته (١) :

حتام نحن سارى الليل في الظلم ... وما سراه على ساق ولا قدم
ولا يحس بأجفان يحس بها ... فقدّ الرقاد غريبٌ بات لم ينم

وهي قصيدة تقطر حزناً ومرارة .. وقد غاودته فيها آراؤه الثائرة التي رأيناها في شعر شبابه الشامي .. ففيها يقول :

ما زلتُ أضحك إبلي كلما نظرت ... إلى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ... ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي ... المجد للسيف ، ليس المجد للقلم
اكتبْ بنا أبداً بعد الكتاب به ... فإنما نحن للأسياف كالخدم
أضعتني . ودوائي ما أشرتِ به ... فإن غفلتُ فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته ... أجاب كل سؤال عن كهل بلم

ويختم الشاعر قصيدته الحزينة بقوله :

وقت يضيع وعمر ليت مدته ... في غير أمته من صالح الأمم
أتى الزمانَ بنوه في شبيبته ... فسرّهم وأتيناه على الهرم

ما هي هذه الأهداف الخطيرة التي ظل المتنبي يسعى وراء تحقيقها طوال عمره فذاق فيها السجن وعاش حياته مشرداً مهدداً ؟ إننا لا نجد في

---

(١) الديوان ص ٥١٠ .

شعر المتنبي إشارة صريحة لها . فهو يراها أخطر من أن يصرح بها كما يقول فى قصيدته التى رثى بها جدته :

يقولون لى : ما أنت فى كل بلدة؟ وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن يُسمّى

ولكن شعره ناطق بأنه كان يسعى إلى أمر عظيم ، تعلّم من الكيد المنظم والدسائس التى أحاطت به فى كل مكان وترصدت له فى كل طريق أن يحرص على كتمانه .

يقول فى إحدى قصائده الشامية فى مستهل حياته (١) :

ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلى تساو المغانى عنده والمقاتل
ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم وليس لنا إلا السيوف وسائل

ويقول ، وقد مر بمكان يعرف بالفراديس ، فسمع زئير أسد (٢) :

أجارُكِ يا أسد الفراديس مكرَم فتسكن نفس ، أم مهان فسلّم؟
ورائى وقدامى عداة كثيرة أحاذر من لص ومنك منهم
فهل لك فى حلفى على ما أريده فإنى بأسباب المعيشة أعرَف
إذا لأتاكِ الرزق من كل وجهة وأثريت مما تغنمين وأغنم

ويقول ، وكأنه يهدد الذين تقرب إليهم بالمدح فلم يعينوه على تحقيق أهدافه (٣) :

لله حال أرجّيها وتخلفنى وأقتضى كونها دهراً وتعطلنى
مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم قصائداً من إناث الخيل والحُصُن

ويقول فى إحدى مدائحه لسيف الدولة (٤) :

---

(١) الديوان ص ٢٧
(٢) الديوان ص ١١١
(٣) الديوان ص ١٥٥
(٤) ص ٣١٠

أُهم بشيء والليـــالى كأنهـــا تطاردنى عن كونه وأطـــارد
وحيد من الخلان فى كل بلدة إذا عظم المطلوب قـلّ المساعد

ما هوهذا الشيء الذى يهم به ويسعى إليه ولا تساعده الظروف على تحقيقه إنه ليس مطلباً شخصياً . فالمطالب الشخصية لا تطلب بالسيف ولا تحتاج إلى الأعوان ، ولا يحارَب صاحبها بهذا الأسلوب المنظم . وإذا كانت سياسية فهل كانت مؤيدة للقرامطة كما ذهب إليه طه حسين وبعض المستشرقين ؟ أم كانت معادية للقرامطة ، تريد أن تنبه الناس إلى خطر دعوتهم ، وإلى أن حقيقتها تخالف ما يظهرون للناس منها — ولفقرائهم المعذبين على وجه الخصوص — حين يزعمون لهم أنهم يريدون أن ينتصفوا للمظلومين المحرومين من المترفين الظالمين ، ويموهون عليهم بالآية الشريفة التى اتخذوها شعاراً يكتبونه على أعلامهم البيضاء : «ونُريدُ أن نمُنَّ على الذين استُضْعِفُوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين» (١) .

إن الذى يدقق النظر ويطيل التأمل فى حياة المتنبى وفى شعره يستطيع أن يجد شواهد كثيرة على عدائه للقرامطة وللباطنية . فالمتنبى قد عاش حياة قلقة لم يذق فيها طعم الاستقرار إلا عند الحمدانيين . وقد أشار ابن الأثير فى مواضع متفرقة من تاريخه إلى جهاد الحمدانيين للقرامطة على وجه العموم ، وإلى جهاد أبى الهيجاء والد سيف الدولة لهم على وجه الخصوص(٢)

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٩٤ حوادث سنة ٣١٦

(٢) ففى حوادث سنة ٢٩٠ تحدث عن مطاردة الحسين بن حمدان (عم سيف الدولة) للقرمطى صاحب الشامة فى بادية الشام وأسره وقتله (٦ : ١٠٨) . وفى حوادث سنة ٢٩٣ تحدث عن مطاردة الحسين بن حمدان للقرامطة فى بادية السماوة وهزيمتهم (٦ : ١١٣ — ١١٤) . وفى حوادث سنة ٢٩٤ تحدث عن إيقاعه بأصحاب ذكرويه بن مهرويه فى الشام (٦ : ١١٧ — ١١٨) . وفى سنة ٣١٢ تحدث عن سراسة أبى الهيجاء بن حمدان (والد سيف الدولة) طريق الكوفة فحج وأسر أبى طاهر القرمطى له (٦ : ١٧٧) . وفى حوادث سنة ٣١٥ تحدث عن استيلاء أبى طاهر القرمطى على الأنبار وتهديده بغداد ، وإشارة أبى الهيجاء بن حمدان على مؤنس المظفر أن يقطع القنطرة الموصلة إلى بغداد . وبذلك نجت العاصمة من القرامطة .

وقد مضى سيف الدولة على آثار أبيه فى مجاهدة القرامطة . ففى سنة ٣٣٧ أغار القرامطة على حمص وأسروا واليها أبا العشائر بن حمدان (ابن عم سيف الدولة) ، فنهض إليهم وأوقع بهم واستنقذ ابن عمه . وفى ذلك يقول المتنبى ، مشيراً إلى جيش القرامطة(١) :

وجيش إمام عـــلى ناقة صحيح الإمامة فى الباطل

ويتهكم بزعيم القرامطة . وكأنه كان يزعم لأتباعه أن الوحى ينزل عليه ، ويموّه عليهم ويخدعهم بما خدعهم به الزعيم القرمطى السابق الملقب بالشيخ ، حين كان يزعم أنه إذا أشار بيده إلى الجهة التى فيها محاربوه انهزموا (٢) وكأنما كان أتباعه ينخدعون بكلامه ، فيتقدمونه وهو راكب فوق جمله وعليه ثياب فضفاضة ذات أكمام واسعة ، كأنهم جماعة النحل الخائج أمام العاسل :

فأقبلن يَنْحَـزْن قدامـه نوافـر كالنحـل والعـاسل
وإنى لأعجب من آمـل قتالا بكُمٍّ عـلى بـازل
أقـال لـه الله لا تلقهـم بمـاض على فرس حـائل
إذا ما ضربت بـه هامـة براهـا وغنـاك فى الكاهل ؟ (٣)

ويشيد المتنبى فى قصيدة أخرى بجهاد سيف الدولة وجهاد أبيه فى مناصرة

---

(١) الديوان ص ٢٥٨ .

(٢) ابن الأثير . حوادث سنة ٢٩٠ (٦ : ١٠٤) .

(٣) وإلى مثل ذلك أشار أبو فراس فى حرب سيف الدولة القرمطى الذى كان يدعى بالمبرقع حين أغار على (حمص) وأسر أباوائل تغلب بن حمدان . فنهض إليه سيف الدولة وأوقع به وقتله . وعاد يحمل رأسه فوق رمحه . وذلك قول أبى فراس الحمدانى : (يتيمة الدهر للثعالبى ١ : ٢٤ فى أخبار سيف الدولة) .

وأقتـد من مس الحديد ونقلـه أبا وائل والـدهر أجـدع صاغر
فآب ورأس القرمطى أمـامه له جسد من أكعب الرمح ضامر

الخلافة العباسية وشد أزرها ضد القرامطة الذين كانوا يعملون على تقويضها فيقول (١) :

فأنت حسام الملك والله ضارب ... وأنت لواء الدين والله عاقد
وأنت أبو الهيجا بن حمدان يا ابنه ... تشابه مولود كريم ووالد
أولئك أنياب الخلافة كلها ... وسائر أملاك البلاد الزوائد

ويشيد في قصيدة أخرى بمناصرة سيف الدولة للخلافة العباسية ، منددا بدولة البويهيين الشيعية التي يسميها (دولة الكفر) (٢).

لأمر أعدته الخلافة للعدا ... وصنته دون العالم الصارم العضبا
فمن كان يرضى اللؤم والكفر ملكه ... فهذا الذي يرضى المكارم والربا

ويتهكم المتنبي في موضع آخر بالدولة العباسية التي يتبعها سيف الدولة والخاضعة للشيعة البويهيين(٣).

فياعجبا من دائل أنت سيفه ... أما يتوقى شفرتي ما تقلدا ؟
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه ... تصيده الضرغام فيما تصيدا

ويشير في قصيدة أخرى إلى جهاد أبي الهيجاء – والد سيف الدولة –

---

(١) الديوان ٣١٠ .

(٢) الديوان ص ٣١٨ . وقد تسلط البويهيون على الخلافة منذ سنة ٣٣٤ ، وضربت أنقابهم على النقود . وقد كان البويهيون من غلاة الشيعة . وكانوا متعصبين لمذهبهم الشيعي . وقد حملوا الناس على الاحتفال بأعياد الشيعة ، مثل الغدير وعاشر المحرم . وكان العداء مستحكماً بين البويهيون وبين الحمدانيين . وكان هذا العداء راجعاً إلى تنافسهم من ناحية ، وإلى ما بينهم من خلاف مذهبي من ناحية أخرى . وقد هم معز الدولة بن بويه بتحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين . ثم رجع عن ذلك لاعتبارات سياسية نبه إليها بعض خواصه – تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) للخضري . الطبعة الرابعة ص ٣٧٨ ، ٣٨٢ .

(٣) ص ٣٥٨ .

فى حرب القرامطة ، حين كان يتولى حراسة طريق الكوفة للحج سنة ٣١٢ فيقول (١) .

ابن المعفر من نجد فوارسها بسيفه وله كوفان والحرم

ويشير إلى غارات القرامطة على أطراف ملك سيف الدولة فيجعلهم أعداء للاسلام كالروم الذين يجاهدهم سواء بسواء حين يقول (٢)

أنت طول الحياة للروم غاز فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أى جانبيك تميل

ويسخر المتنبى من دعوى المهدية والرجعة ، التى يشيعها الباطنية والقرامطة ، لأنها تصرف الناس عن معالجة الفساد بالكفاح فى سبيل الاصلاح ، وتعلقهم بالأوهام . فيقول فى إحدى قصائده لعضد الدولة فى شيراز (٣).

فان يكن المهدىُّ من بان هديُه فهذا . وإلا فالهدىّ ذا . فالمهدى؟
يعللنا هذا الزمان بذا الوعد ويخدع عما فى يديه من النقد
هل الخير خير ليس بالخير غائبٌ أم الرشد شىء غائب ليس بالرشد؟

وذلك كله صريح فى عداء المتنبى للباطنية وللقرامطة . فاذا أضفنا إليه ما سبق أن لاحظناه ، من وصفه خصومه الذين يكيدون له بأنهم أدعياء تارة وبأنهم يهود تارة أخرى ، مع ما هو معروف من اتهام الفاطميين بأنهم يهود ادعوا النسب العلوى - وهى تهمة شائعة فى عصرهم ، كما يبدو من المحاضر التى دونتها الدولة العباسية (٤) . ومن كتب الفرق . وإذا أضفنا

---

(١) الديوان ص ٤١٧ .
(٢) الديوان ص ٤٢٧ .
(٣) الديوان ص ٥٤٧ .
(٤) كتب أول هذه المحاضر فى عهد الخليفة العباسى القادر بالله سنة ٤٠٢ - وهو معاصر لحاكم بأمر الله الفاطمى . وقد وقع المحضر كبار الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة . ويتضمن المحضر الطعن فى نسب الفاطميين ، وأنهم ديصانية ينتسبون إلى ميمون بن ديصان القداح ، =

إليه كذلك مالاحظناه من القيم الخلقية التي تعلق بها ومجدها ودعا اليها وأكثر من ترديدها ، وهي قيم تناقض العقيدة الأساسية في مذهب الاسماعيلية بكل فروعها — ومنها القرامطة — ، تأكد عندنا من ذلك كله ما ذهبنا إليه من أن المتنبي كان يناهض القرامطة ودعاة الباطنية .

والواقع أن الشكوى التي يفيض بها شعر المتنبي أليق بعدو القرامطة منها بالداعية القرمطي . فالداعية القرمطي لا يشكو ولا يتعجل النتائج ، لأن الدعوة كانت تسير على نظام مرسوم بطريق سري لا تجهر فيه بالشكوى من قلة النصير ، ولا تعلن فيه العداء للناس . ولأن دعاة الباطنية — ومنهم القرامطة — كانوا ينشّئون تنشئة خاصة ، تكسبهم خبرة بطبائع الناس والمجتمعات ، وقدرة على الدخول إلى قلوبهم من أقرب الطرق وأحبها إليهم . وكان الكتمان أبرز صفاتهم . وإنما الأليق بهذه الثورة أن تكون تعبيراً عن ضيقه بفساد المجتمع والحكام ، الذي مهد الطريق لدعوة القرامطة ومكن لها ، وبعدم استجابة الناس له حين ينبههم إلى خطر القرامطة والفاطميين فتقعد بهم البلادة والغباء والخوف عن الاستجابة لدعوته ، وحين يجد كثيراً منهم واقعاً تحت سيطرتهم عن رهبة أو غفلة . وحين يقصد الأمراء وأصحاب النفوذ والسلطان فيجدهم مشغولين عن الجهاد وتكاليفه بالترف والشهوات .

ولو كان المتنبي داعية قرمطياً كما ذهب إليه بعض الباحثين لعاش كما يعيش كل دعاة القرامطة متخفياً لا يعرف الناس حقيقة ميوله . ولما واجه هذا الكيد المنظم في كل بلد حل به وفي كل طريق سلكه ، وهو كيد لا يصدر إلا عن جماعة واسعة الانتشار دقيقة التنظيم . وأعداء القرامطة ليس لهم رابطة منظمة . وقد واجه المتنبي دعاية محكمة في الشيع

—وأنهم كفار زنادقة وفساق ملاحدة ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية . ثم صدر ببغداد محضر آخر سنة ٤٤٤ يتضمن الطاعن نفسها ، ويزيد عليها أن الفاطميين يرجعون إلى أصل يهودي أو مجوسي ، ثم صدر محضر ثالث يؤكد المحضرين السابقين سنة ٤٤٨ — تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ — ٤١١ ، الحاكم بأمر الله ص ٥٥ — ٥٦ .

بسيرته وبشعره على السواء فوضعوا قصصاً تصور بخله ودناءة نفسه . ولم يتورع بعض هذه القصص عن رميه بالغلمان ، مما يتعارض تعارضاً صارخاً مع حياته وشعره . وزعموا أنه ادعى النبوة ، وصنعوا كلاما ركيكا زعموا أنه عارض به القرآن . ولو أراد المتنبي معارضته حقاً فنقد كان قادراً على كلام أعلى طبقة وأبلغ عبارة . وزعموا أنه كان لا يصلى ولا يصوم ولا يقرأ القرآن. وأغرى به المهلبي وزير معز الدولة البويهي جماعة من الشعراء الساقطين سلوكاً وفناً يهشونه ويزعمون أن أباه سقاء وينالون منه(١). وأغرى به الحاتمي ، فقصده فى مجلسه بين تلاميذه الذين يأخذون عنه شعره ، وتطاول عليه وحقره ، فى القصة المشهورة التى تصور الظلم والتحامل ، والتعسف فى تتبع الأخطاء ، وإنكار المحاسن وادعاء أنها مسروقة (٢). ووضعوا عدداً ضخماً من الكتب فى سرقاته وفى تتبع مساوىء شعره (٣). وذلك كله بالاضافة إلى ما كان يحاك له من دسائس ، وما يوضع فى طريقه من العقبات ، وما يهدد حياته فى أسفاره من ترصد ومطاردة .

وهذا الصراع الذى خاضه المتنبي طول حياته ، والذى انتهى بمقتله ، يذكرنا برد الشريف الرضى على أبيه حين عاتبه فى الشعر المنسوب إليه ، والذى يمدح به الفاطميين . فلما أنكره الرضى طلب إليه أبوه أن يعلن هذا الانكار بين الناس ، فاعتذر من ذلك قائلا (.. ولكنى أخاف من الديلم وأخاف من المصرى ومن الدعاة فى البلاد)(٤) . لقد أصبح الدعاة الذين بهم الفاطميون فى كل مكان ، والديلم الذين يؤيدون هذا المذهب ، قوة تبعث الرعب فى النفوس . وقد ازداد خطرهم من بعد ذلك حين استولى الحسن الصباح على قلعة ألموت (جنوبى بحر قزوين) سنة ٤٨٣ .

* * * * *

(١) راجع تفصيل ذلك فى (الصبح المنبى عن حيثية المتنبى) للبديعى ص ٤٨ إلى ٤٩ ، ٥٠ ، ٢٣ إلى ٢٨ ، ٣٢ إلى ٣٣ ، ٨١

(٢) الصبح المنبى ص ٧٣ — ٨٠ وراجع مثل ذلك أيضاً فى قصته مع أبى فراس ص ٨٢ — ٨٣

(٣) راجع أسماء الكتب فى (الصبح المنبى) ص ٨٢ ، ١٦١

(٤) ابن الأثير ٦ : ١٢٥ حوادث سنة ٢٩٤

ولكن قصيدة واحدة فى ديوان المتنبي من قصائد صباه فى الكوفة تعارض هذه الصورة التى استخرجناها من سائر شعره ، وتدل دلالة صريحة على أن الشاعر من غلاة الشيعة الباطنيين الذين يؤمنون بالحلول . ونعنى بها قصيدته (١) .

كفىّ،أرانى – ويلكِ – لومكِ ألوما همٌ أقام على فؤاد أنجما

وهى قصيدة أخفى الشاعر اسم الممدوح فيها ، واكتفى الديوان فى تقديمها بقوله : (وقال وهو فى المكتب يمدح إنسانا ، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه) .

يقول المتنبي فى هذه القصيدة لممدوحه المجهول :

يا أيها الملك المصفى جوهـراً من ذات ذى الملكوت أسمى من سما
نور تظـاهر فيك لا هوتيُّـه فتكاد تعلم علم ما لن يُعلّما
أنا مبصر وأظن أنى نـائم من كان يعلم بالإله فأحلمـا
كبر العيـان علىّ حتى إنـه صار اليقين من العيان توهما

هذه الأبيات صريحة فى دلالتها على أن صاحبها يؤمن بما يذهب إليه الباطنية الاسماعيلية فى أئمتهم . وهى تذكرنا بوصف داعى الدعاة مقابلته الأولى للمستنصر الفاطمى ، الذى ذكرناه من قبل . والممدوح بهذه القصيدة غيرمعروف ، لكن من المحتمل أن يكون أحد دعاة القرامطة فى الكوفة . ولعله (أبو الفضل) الذى ورد ذكره فى كتاب أبى القاسم عبدالله بن عبد الرحمن الأصفهانى الذى ألفه لبهاء الدولة بن بويه (إيضاح المشكل فى شعر المتنبي) ، حيث قال إن أبا الطيب (كان فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة . فهوسه وأضله كما ضل) (٢)

---

(١) الديوان ص ٨ .
(٢) ذكرى أبى الطيب ص ٣١ ، ٣٧

وهذه القصيدة هي نقطة البدء التي بنى عليها كلامهم كل من ذهب إلى تقرمط المتنبي من الباحثين (١) .

والقصيدة على كل حال لا شك في دلالتها . وليس لنا بد من أن نقول إن المتنبي كان واقعاً تحت سيطرة القرامطة – الفكرية على الأقل – حين كتبها . ويدعونا هذا إلى أن نتساءل : هل كان هو وحده واقعاً تحت سيطرة القرامطة ، أم كانت أسرته تشاركه في اعتناق هذا المذهب ؟ إننا لانعرف شيئاً عن أسرته ولا نعرف أباه ولا نعرف أمه . وقد تحاشى المتنبي ذكرهما في كل شعره رغم ما ووجه به من تحدّي خصومه . ولا نعرف عن جدته إلا القصيدة التي رثاها بها ، وما رواه الخطيب البغدادي من أنها كانت همدانية صحيحة النسب ، وكانت من صالحات النساء الكوفيات (٢)

وما دام التاريخ قد سكت عن هذه المسئلة . وما دام شعر المتنبي يقف منها موقف الصمت . فليس لنا بد من أن نملأ هذه الفجوة في قصة حياة شاعرنا بالفروض . فهل نستطيع أن نفترض – مع ما نعرفه من تسلط القرامطة على الكوفة ، واتخاذهم معسكراً في البادية القريبة منها (٣) – أن القرامطة قد نجحوا في استدراج والد المتنبي ووالدته الفقيرين ، إلى مذهبهم الذي كان يستدرج أمثالهما من الفقراء بما يعدهم من عدل ورخاء في ظل المهدي المنتظر ، فرحلا مع ابنهم الصغير إلى أحد معسكراتهم؟ وشاركوا في غارات

---

(١) ومبنى هذه الحسبان على ذلك أن المتنبي قد اضطر للجلاء عن الكوفة بعد جلاء القرامطة ، فذهب إلى بغداد داعية للمذهب القرمطي . وقد بنى الباحث ذلك على أنه مدح محمد بن عبد الله العلوي بقصيدته (أهلا بدار سباك أغيدها) ووصف فيها فراره من الكوفة سيراً على الأقدام . والواقع أن الممدوح بهذه القصيدة لم يكن في بغداد ، ولكنه كان في الكوفة ، كما حققه عبد الوهاب عزام (ذكرى أبي الطيب ص ٤٩) . وربما كان ما ذكره في القصيدة من وصف رحلته سيراً على الأقدام وصفاً لعودته من البادية إلى الكوفة .

(٢) ذكرى أبي الطيب ص ٣١ ، ٣٧ .

(٣) تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٨٦ .

القرامطة على الكوفة ؟ وأن الصبي الصغير حين شب وعقل قد اطلع على مخازيهم فى هذا المعسكر بعد أن عاش فيه سنين ، فهرب إلى جدته التى كانت تعيش فى حزن يأكل قلبها على مصير ابنتها . وامتلأت نفس المتنبي بالسخط على المجتمع الذى عاش فيه ، بكل ما فيه من فساد وظلم . سخط على الحياة اللاهية المترفة التى يحياها أصحاب الجاه والسلطان ، والتى يقابلها فى الناحية الأخرى حرمان شديد وفقر مدقع . وسخط على الانحلال والفساد الذى يغرق فيه الأغنياء المترفون . وسخط على الانحلال والفساد الذى يُدفع إليه الفقراء المعدمون . وسخط على استخزاء الناس وضعف هممهم وتفاهتهم وانشغالهم بشهواتهم . واعتبر ذلك الفساد بكل مظاهره وألوانه مسئولا عن تسلل المذاهب الهدامة التى تختفى خلف شعارات براقة تعمل من ورائها عناصر غريبة على المسلمين وعلى العرب ، تريد أن تضرب الإسلام والعرب فى وقت واحد . كانت نفس المتنبى تفيض بهذا السخط . وكانت هذه الآراء تدور فى رأسه ، وتنضج الحقد الذى يملأ صدره والسخط الذى يغلى فى أعماقه . وكانت جدته الحازمة المنكوبة تحيط برعايتها وإرشادها ذلك الصبي الصغير الذى أصبح كل ما بقى لها فى الحياة . ولكن المتنبى لم يطق حياة الذل والعار . ولم يستطع أن يواجه المجتمع الكوفى الصغير ، الذى يتساءل فى كثير من الدهشة التى يخالطها الإشفاق ، والتى لا تخلو فى بعض الأحيان من الغمز واللمز ، عن اختفاء والد المتنبي ووالدته . رحل المتنبى إلى الشام يحمل بين جنبيه كل ما أنضجته التجربة القاسية من حقد ومن سخط . ويحمل فى رأسه كل ما وعى من حقائق فى مجتمعه وفى مجتمع القرامطة وما سمع من جدته . ولم يقدّر فى فورة شبابه واندفاعه قدرته وامكانه . وظن أن الأمر يسير ، وأنه يستطيع أن يفعل شيئاً يغير به الوضع القائم . ولمَ لا يفعل وباب المجد فى عصره مفتوح لكل طموح ولكل مغامر ، من جنود الترك الذين كانوا يثبون من منازل الخدم إلى مقاعد الرياسة ، ومن مشايخ القبائل وأصحاب الدعاوى والدعوات الذين كانوا يثبون فجأة وفى سهولة ويسر إلى مراكز الامارة ، ولا يلبثون أن يستقلوا عن الخلافة وأن يصبحوا ملوكاً فى إماراتهم المستقلة .

بدأ المتنبي يتصل في الشام بمشايخ القبائل وبالأمراء، يتقرب إليهم بشعره مادحاً ، ويحاول أن ينبههم إلى خطر القرامطة والدعوة الباطنية ، وإلى فساد الأوضاع الاجتماعية القائمة ، وأن يضمهم في جبهة واحدة تقف في وجه هذا الخطر الذي يزحف عليهم من الشرق بالقرامطة ومن الغرب بالفاطميين . ولكن دعاة القرامطة والفاطميين وعملاءهم كانوا يتعقبون الفتى الشاب ويرصدونه ، ويحيطونه بمكايدهم ودسائسهم التي استمرت إلى نهاية عمره وانتهت بمقتله .

هذا المعسكر القرمطي الذي نفرض هرب المتنبي إليه مع والديه وهو بعد صبي صغير ، يذكرنا بما رواه الطبري وابن الأثير في حوادث سنة ٢٩٠ من خبر المرأة العراقية التي غاب عنها ولدها فخرجت تنشده حتى وقعت عليه في معسكر القرامطة ، وما وصفته من حياة الشيوع الجنسي الذي كان هؤلاء القرامطة يعيشون فيه ، وما كان من ضرب ابنها لها بالسيف حين هربت من هذا المعسكر (١) .

وهذا الفرض الذي ذهبنا إليه يمكن أن يفسر كثيراً من الغموض في حياة الشاعر وفي شعره . فهو يفسر لنا صمته عن ذكر أبيه وأمه . ويفسر لنا ماورواه الخطيب البغدادي وابن الأنباري والبديعي من أن الشاعر قد خرج إلى البادية فعاش مع الأعراب سنين ، ثم عاد إلى الكوفة بدوياً فحا (٢) . ويفسر لنا البيت الذي جاء في قصيدته الدالية التي وجهها إلى إسحق بن كيغلغ من سجنه ، وهو قوله :

وقيل عدوتُ على العـــالمي ن بين ولادي وبين القعـود

فالتهمة التي أثارها خصومه وقتذاك فيما يبدو هي أنه اشترك مع أسرته وهو بعد صبي صغير . — في غارة أو عدوان على جماعة المسلمين .

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٠٥ حوادث سنة ٢٩٠، الطبري ٨ : ٢١٩ .
(٢) ذكرى أبي الطيب ص ٤٠

ويفسر لنا ذلك الفرض كذلك ما جاء فى تقديم القصيدة الدالية السابقة من أن الشاعر قد أسقط بعض شعره ، وكانت هذه القصيدة مما أسقطه من شعر الصبا (١) . ويفسر لنا أيضاً إشارته فى إحدى قصائده عند ميف الدولة إلى جماعة عاش بينهم فى صباه ، بين (العذيب) و(بارق) و(الشّوية) — وهى مواضع فى ظاهر الكوفة — ووصف حياتهم بالخشونة . فهم يفترشون الأرض ، ويلبسون ما يقتنصون من وحش الصحراء مما يقى من سيوفهم التى كسروها فى رءوس من قتلوا من الناس (٢) .

تذكرت مابين (العُذَيب) و(بارق) ... مجرّ عوالينا ومجرى السوابق
ومجتمع قوم يذبحون قنيصهم ... بفضله ما قد كسّروا فى المفارق
وليلا توسدنا (الشّويّة) تحته ... كأن تراها عنبر فى المفارق

ويفسر لنا هذا الغرض كذلك بعض ماجاء فى القصيدة التى رثى بها جدته . ففى هذه القصيدة ظواهر كثيرة تلفت نظر الدارس (٣) :

فالمتنبى قد جاء لزيارة جدته بعد غيبة طويلة فى الشام . ولم يشأ أن يدخل الكوفة ، وكتب إلى جدته أن توافيه فى بغداد . فلما باغتها كتابه بعد يأس من لقائه هُمّت وقتلها المفاجأة اوقتها :

أتاها كتابى بعد يأس وترحة ... فماتت سرورا بى فمتّ بها غمّا

والمتنبى يشير إلى أنه قد ترك جدته مطالباً بثأرها هو فى الوقت نفسه ثأر له ، ففاته الثأر وفاتته جدته :

طلبت لها ثأراً ففاتت وفاتنى ... وقد رضيتْ بى لو رضيتُ بها قسما
فأصبحت أستسقى الغمام لقبرها ... وقد كنت أستسقى الوغى والقنا الصُّما
هبينى أخذت الثأر فيك من العِدَا ... فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمّى

(١) ديوان أبى الطيب المتنبى ص ٤٦ . وقد أثبتها الشاعر من بعد إجابة لرغبة بعض أهل الأدب
(٢) الديوان ص ٣٨٦ .
(٣) الديوان ص ١٥٩ .

ويشير المتنبي إلى ما تثيره كثرة أسفاره وتنقله بين البلاد من تساؤل عن حقيقة أهدافه . ويقول إن أهدافه أخطر من أن يصرح بها :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة ؟ وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن يسمى

ويقرر المتنبي – في قصيدة رثاه ، يخيم عليها حزن عميق – أنه سيمضي فيما بدأه ، حتى ينتقم لها ويأخذ بثأرها :

لئن لذ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لآنافهم رغماً
... ولكنني مستنصر بذبابه ومرتكب في كل حال به القشما
وجاعله يوم اللقاء تحيتي وإلا فلست السيد البطل القرما

والمتنبي في هذه القصيدة يضفي على جدته كل ما فقده من صفات الأبوة والأمومة معاً . ففيها حنان الأم حين يقول :

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

وفيها حزم الأب وقوة إدراكه وقدرته على التوجيه حين يقول

فوا أسفا أن لا أكب مقبلا لرأسك والصدر اللذين ملئا حزما

هذه الفوضى الخلقية والإباحة الجنسية التي اطلع عليها المتنبي في معسكر القرامطة هي التي تركت في نفسه ذلك الأثر العميق والكراهية الشديدة للخمر وللنساء التي تبدو واضحة في سيرته وفي شعره . وهو في الوقت نفسه يعلل لنا قصيدتين بالغتين في الإفحاش ، وقف أمامهما الرواة والدارسون حائرين ، وهما قصيدته في إسحق بن كيغلغ في طرابلس ، وقصيدته في ضبة بن يزيد العبني الأسدي (١) . والإفحاش فيهما صريح عار ، يقوم على اتهام كل من المهجوين في عرضه وفي عرض أمه وعرض زوجته . فهل كان ذلك تعريضاً بقرمطية المهجو ؟ من الثابت أن أحد المهجوين – وهو ضبة –

(١) الديوان ص ٢١٨ ، ٥١٤ .

كان قرمطيا . فالذين أغاروا على الكوفة ، حين كان المتنبي فيها بعد عودته من مصر سنة ٣٥٣ كانوا من قرامطة بنى كلاب ، أخوال ضبة (١) والذين خرجوا مع ضبة ، وترصدوا المتنبي وقتلوه فى عودته من شيراز إلى بغداد كانوا من قرامطة بنى كلاب أيضاً (٢) .

إن هذا الإفحاش المكشوف فى الهجاء يذكرنا بشعر أبى القاسم الواسانى فى منشا اليهودى ، الذى كان واليا للعزيز الفاطمى فى الشام (٣). وربما كان شيوع مذهب القرامطة فى الشام وفى العراق فى القرن الرابع الهجرى هو المسئول عن ذلك السيل الفاحش من الهجاء المكشوف الذى يملأ كتاب (يتيمة الدهر) .

وبعد ، فقد طال الحديث وامتد ولم نبلغ ما نريد . فلعل باحثاً يتفرغ لتتبع صلات المتنبي بالقبائل والأماكن التى ذكرها فى شعره من ناحية ، ولموقف هذه القبائل والأماكن من دعوة القرامطة والإسماعيلية الفاطمية من ناحية أخرى . وهو عمل شاق طويل ، ولكنه مفيد . وقد يؤكد تأكيداً قاطعاً ما ذهبنا إليه من فرض .

وأعود فى آخر الأمر فأختتم هذا الحديث بالكلمة العميقة المعنى البالغة الدلالة فى تصوير تواضع العلماء وبراءتهم من الغرور ، وإقرارهم بالقصور . وهى الكلمة التى تعود علماؤنا أن يختموا بها كل رأى يذهبون إليه حين يقولون « والله أعلم » ..

والسلام عليكم ورحمة الله ..

ألقيت فى كلية الآداب بجامعة الليبية ببنغازى فى يوم السبت ٢١ رجب ١٣٨٣ (٧ ديسمبر ١٩٦٣)

---

(١) الديوان . حاشية ص ٥١٩ .

(٢) الديوان ص ٥٨٧ .

(٣) تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠٢ – يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٣٣٦ ، ٣٤٩ إلى ٣٥٥

المراجع التى ورد ذكرها فى الحواشى

١ – تاريخ الأمم والملوك (ج ٨) للطبرى – مطبعة الاستقامة بمصر ١٣٥٨ – ١٩٣٩ م

٢ – تاريخ الدولة الفاطمية – لحسن ابراهيم – الطبعة الثانية ١٩٥٨ م .

٣ – التبصير فى الدين – للاسفراينى – مطبعة الأنوار بمصر ١٣٥٩ – ١٩٤٠ م .

٤ – الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية – لمحمد عبد الله عنان . الطبعة الثانية ، لجنة التأليف ١٣٧٩ – ١٩٥٩ م .

٥ – الخطط للمقريزى : راجع (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) .

٦ – ديوان أبى الطيب المتنبى – تحقيق عبد الوهاب عزام – مطبعة لجنة التأليف ١٣٦٣ – ١٩٤٤م

٧ – ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة تقديم وتحقيق محمد كامل حسين – مطبعة الكاتب المصرى عام ١٩٤٩ م .

٨ – ذكرى أبى الطيب – لعبد الوهاب عزام – الطبعة الثانية ١٣٧٥ – ١٩٥٦ م .

٩ – الصبح المنبى عن حيثية المتنبى – للبديعى – مكتبة عرفة بدمشق ١٣٥٠ هـ .

١٠ – طائفة الإسماعيلية – لمحمد كامل حسين – مطبعة لجنة التأليف – ١٩٥٩ م .

١١ – فرق الشيعة – للنوبختى – المطبعة الحيدرية فى النجف ١٣٥٥ – ١٩٣٦ م .

١٢ – الكامل فى التاريخ (ج ٦) لابن الأثير – المطبعة المنيرية بمصر ١٣٥٣ هـ .

١٣ – كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة – لمحمد بن مالك الحمدى اليمانى – مطبعة الأنوار بمصر ١٣٥٧ – ١٩٣٩ م .

١٤ – محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) للخضرى – الطبعة الرابعة ١٣٥٣ – ١٩٣٤ م .

١٥ – مختصر الفرق بين الفرق للبغدادى (اختصار الرسعنى) – مطبعة الهلال بمصر ١٩٢٤ م .

١٦ – مع المتنبى – لطه حسين – المعارف بمصر ١٩٦٢ م .

١٧ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ج ٢) للمقريزى – مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤هـ.

١٨ – يتيمة الدهر – للثعالبى – مطبعة حجازى بمصر ١٣٦٦ – ١٩٤٧ م .

استدراك

لا بد لى من الاشارة إلى بحثين يتصلان بهذا الموضوع ، لم يتيسر وجودهما بين يدى حين كتبت كلمتى هذه . وهما بحث محمود محمد شاكر الذى نشر فى مجلة المقتطف (عدد يناير ١٩٣٦) وبحث عبد المحسن الحسينى الذى نشر بالانجليزية فى مجلة جامعة بشاور بالباكستان سنة ١٩٥٤ .

أما محمود شاكر فقد افترض فى بحثه أن المتنبى طوى النسب ، اضطره العلويون واضطروا جدته إلى إخفاء هذا النسب ، بعد أن فرقوا بين الزوجين (أب المتنبى وأمه) لأسباب مجهولة وبنى بحثه على ذلك . ووجه كل ما فى شعره من ثورة الى أنه صدى لمكايد العلويين من ناحية ولعصبيته العربية وكراهيته للأعاجم الذين تسلطوا على الدولة وأفسدوها من ناحية أخرى . وفى البحث نقد علمى دقيق لكثير من الروايات التى تردد ما حاكه خصوم المتنبى لتشويه سيرته .

أما عبد المحسن الحسينى فقد بنى بحثه على أساس اقتصادى . وفسر فيه ثورة المتنبى على أنها ثورة للعرب فى الصراع الاقتصادى الذى كان يدور بينهم وبين الأعاجم بقصد السيطرة على الطرق التجارية فى الشمال بين العراق والشام ، وفى الجنوب بين العراق والخليج العربى . والقرامطة عنده أحد هؤلاء الأعاجم خصوم العرب .